

الأعلام من الأدباء والشعراء



الكنية زبيل السك

الشاعر السياسي

إعداد
سامون بن يحيى الدين النان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الاعلام من الادباء والشعراء

الكَمِيتُ زَيْدُ الْاَسَدِ

الشاعر السياسي

إعداد
مأمون بن محيي الدين البنان

شبكة كتب الشيعة



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

م.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٢٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٢٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاکس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٦٠٢١٢٣/٩٦١١

الإهداء

إلى ابنتي الحبيبة.....

إشراقة النور.....

غناء الطبيعة.....

عبق الزهر.....

ترنيمة الحب.....

رنيم.....

مأمون الجنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الشعر العربي في عموميه وعلى تعدد مضامينه واختلاف صوره ومظاهره، يعتبر من ثروتنا الأدبية التي نفخر ونعتز بها، مما يجمعنا في توحد دائم الاتصال والترابط، هذا التوحد يتحول إلى قوة نتاجية مفيدة متطورة في الوقت نفسه، مما يجعل لهذه القوة مدلولات حيوية مساعدة في إلقاء الضوء على هذا الشاعر أو ذاك.

ولقد حاول بعض النقاد والشرح السابقين، بطرقهم الخاصة رصد شعر الكميت ودراسته وتتبع أخباره وسيرته، وقد استطاعوا أن يلتقطوا المواطن التي كان فيها مادحاً أو هاجياً. وقد عوّلت في هذه الدراسة على كثير من كتبهم القيمة، غير أن الكشف عن الكميت لا ينتهي عند هذا الحد، فقد حاولت التقرب من شخصيته ونفسيته، لمعرفة بعض مواقفه من الحياة، ولنرى ماذا رسبته التجربة في ذهنه. ولعل هذه الدراسة فرصة مواتية ونهضة سانحة أغتنمها لأوجه كل الشكر والامتنان للذين سبقوني في دراسة هذا الشاعر، كما أن دراستهم كانت لي عوناً في كشف الغطاء ونفض الغبار عن تراثنا الأدبي العظيم.

والكميت لم ينل حصته من البحث والتعقب، ولم يكتب المؤرخون له كما فعلوا مع المثلث الأموي [جرير والفرزدق والأخطل]، إما لظروف سياسية أو عقائدية، امّا دفعني إلى أن أشير إلى الحقبة المهمة من حياة شاعرنا، وهي الحقبة التي ارتبط اسمه بالشعراء السياسيين. فقد توزع شعره في مدح بني هاشم وبني أمية وهما على طرفي نقيض. وهذا يبدو غريباً من رجل عرف أن الشيء الواحد يمكن أن يقبل الوصفين في ظرفين مختلفين؟!

وهكذا أجد نفسي مجبراً على القول بأن في الحقيقة هناك ما يجذب في شعر الكميت ويأسر الناس إليه، إنه صورة تعتبر للباحثين والدارسين أدباً أصيلاً وعريقاً، وجديراً بكل اهتمام ورعاية.

إن هذا العمل أظهر أن الكميت قد أسهم في إثراء تراثنا الأدبي من واقع ظروفه، وبيئته وتطورها السياسي والاجتماعي، والشيء الوحيد الذي نجح فيه الكميت، أنه ترك للآخرين مصدراً دائماً ينطوي في الوقت نفسه على متعة حقيقية ألا وهو شعره...

وفي هذه الدراسة اعتمدت طريقة شبه موسعة ومتعددة الجوانب حول شاعرنا وما يتصل به من معالم جديدة، وحول الدوافع الخلفية التي شكلت بالضرورة تكوينه الذهني والنفسي وتركيبته الذاتية، إضافة إلى ما يحويه شعره من مقتضيات العقل ونتائج الفكر العربي.

وقد تمت على عدة فصول:

- الفصل الأول: أشكال الحياة في عصره.

- الفصل الثاني: مدخل نحو الشعر الأموي وأغراضه - الشعر السياسي ونشأته ومجمل خصائصه.

الفصل الثالث : نسبه وحياته وخصائصه النفسية - علاقة الكميت بالدولة الأموية.

- الفصل الرابع: أغراضه الشعرية والهاشميات - الخاتمة وبعض نماذج من أشعاره وأخباره.

وقد جعلت كشافاً بأسماء المصادر والمراجع التي استعنت بها في إخراج هذه الدراسة، مرتباً حسب التسلسل الأبجدي في آخر هذا الكتاب ووثقته، بأسلوب علمي متدرج (مما يفيد القارئ والدارس مبتدئاً كان أو متبحراً). هذا ما حاولت صنعه ولا أدعي أنني بلغت في هذا كمالاً، فالكمال لله وحده، ولكنها محاولة أمل أن يجد فيها القارئ ما يصبو إليه وأن أكون قد وفقت في المساهمة ببناء صرح المكتبة العربية الشامخ.

وإن كان ثمة شيء يذكر، فهو ثنائي على أساتذتي الذين منهم تعلمت وعلى كتبهم عوّلت ومن آثارهم اقتبست، غفر الله لهم ولي آمين.

مأمون الجتّان

دمشق ٢٦/٤/١٩٩٣

الفصل الأول

الحياة السياسية:

تأثرت الأوضاع السياسية في الحكم الأموي بتجديد الخصومات القبلية بين القحطانية والعدنانية أو بين اليمنية والقيسية، وتميز الحكم الأموي أيضاً بشكل ظاهر بالعصية عامة، فقد كان هناك عصية العرب ضد العجم والموالي مثلاً، وبين بني أمية على بني هاشم، والقبائل التي كانت موالية للأمويين على المناوئة لهم كعصية تغلب ضد القيسية.

ويعتبر هذا العصر عصر الاضطراب السياسي وأحوالها ونشوء الأحزاب والصراع في ما بينها. واشتد هذا الصراع اشتداداً عنيفاً اضطّر معه الأمويون إلى اللجوء إلى البطش والقوة والتهديد والمخادعة والرشوة لاكتساب أكبر عدد ممكن من القبائل إلى جانب الخلافة. كل هذا أدى إلى اختلاف الآراء السياسية وفي الحكم، وإلى نشوء أحزاب، يتمسك كل حزب بمذهب أو عقيدة يعمل على الترويج لها والنضال في سبيلها وتجميع الناس حولها، وخاصة في

كما تميز الحكم الأموي بتحويل الخلافة إلى ملك وراثي مخالف لسياسة الراشدين التي كانت تعتمد على الشورى، مما جرّ ويلات كثيرة على المسلمين وأشاع بينهم الفرقة والانقسام.

غير أن هناك أمراً جديراً بالذكر، هو أن عدداً من الخلفاء الأمويين كانوا فعلاً رجال دولة وسياسية بالمعنى الصحيح. فكان لديهم الدهاء والذكاء، وقوة الشخصية، وسعة الصدور والحزم والجذّة، والقدرة على تحمّل أعباء الحكم وحسن التصرف في الأمور العظيمة.

وكان حكم الأمويين للدولة حكماً مركزياً، يعود الولاة إلى الخليفة في مختلف الشؤون؛ وهم يحكمون الأقاليم باسمه كزياد^(١) والحجاج^(٢) وآل المهلب^(٣) وسواهم، وليس لهم سياسة شخصية

(١) هو زياد بن أبيه أمير من قادة الفاتحين، من كبار رجال الدولة الأموية أصله من الطائف أمه «سمية» يكتنف الغموض نسبه. ناصر علياً ضد الأمويين حتى إذا توفي عليّ ألحقه معاوية بنسب أبيه أبي سفيان بعد أن استدعاه إلى دمشق وولاه الكوفة. توفي بالطاعون (٥٣ هـ) في الكوفة.

(٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفي توفي في واسط (٩٥ هـ). قائد وخطيب عربي ولد في الطائف، واشتهر بولائه للبيت الأموي، ولآه عبد الملك بن مروان إمرة جيشه ففضى على ابن الزبير وابن الأشعث وتولى مكة والمدينة والطائف والعراق وقضى على الخوارج. عني بأمور الري والإصلاح التقدي، اشتهر بالخطابة والشدة في الحكم.

(٣) تعود هذه النسبة إلى أبي سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي أمير خراسان، وأولاده العشرة نسبة وولاء. انظر الأنساب للسمعاني ٤١٨/٥ طبعة دار =

خاصة، بل كانوا يتقيدون بالسياسة الأموية العامة، ويسيرون وفقاً للخط الذي رسمه الخليفة.

وفي مقدمة الأحزاب التي حاربت بني أمية في الحكم كان الشيعة والخوارج والزييريين، في الحجاز والعراق وأما في الشام فقد كان أقل الأقطار الإسلامية اضطراباً وأكثرها تأييداً للأمويين بفضل السياسة التي اتبعها معاوية^(١) في استمالة هذا القطر منذ ولايته عليه زمن الراشدين، ولذا كانت بلاد الشام منطلق السياسة الأموية ومعقل حزبهم ومركز دولتهم.

وقد نجم عن هذه الصراعات بين الحزب الحاكم والأحزاب المناوئة له، آراء مختلفة في السياسة والحكم. وراحت الفئات المتصارعة تجمع الرأي العام الإسلامي حولها وتجتهد في الدعاية لمذاهبها والترويج لنظرياتها في السياسة.

وقد ساعد هذا على أن يتلون الأدب شعره ونثره بألوان هذه النظريات السياسية، وحرص كل حزب على أن يكون له دعائه من الشعراء والخطباء، يحركون عواطف الناس ويشيرون حماسهم من ناحية ويستميلون أفكارهم بالإقناع والحجة من ناحية ثانية. فما هو الدور الذي لعبته الأحزاب على مسرح الحياة السياسية في العصر الأموي؟ وما هي الآراء التي تعرض لها الخطباء والشعراء؟ إليك أولاً عزيزي القارئ التعريف بالأحزاب واراتها ولنبداً أولاً:

= الجنان.

(١) هو معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، توفي سنة (٦٠ هـ).

- الحزب الشيعي:

وهم حزب عليّ القائلون بنظرية الوراثة وقد سمّوا شيعة لأنهم شايعوه وتحزبوا له. وكانوا يؤمنون منذ وفاة النبي ﷺ بحق عليّ بالخلافة على أساس أنه الإمام الوريث لابن عمه، ولأنه أصل سلالة آل البيت النبوي، وليس أحد أولى منه بزعامة المسلمين بعده، معتمدين في ذلك على نصوص تقول بأن النبي أوصى قبل وفاته لعليّ. وحصروا منصب الإمامة في بنيه.

إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فصبروا حتى كانت فتنة في عهد عثمان فعملوا لعليّ وبايعوه وقتلوا معه، ولكنهم صدموا بخدعة التحكيم، واستنثار بني أمية بالسلطة، الأمر الذي زاد فيهم النقمة.

وحاربوا الأمويين مرات عديدة إلى أن كان مقتل الحسين في كربلاء ترك ذيولاً سياسية بعيدة المدى عظيمة الأثر وأذكى التشيع إلى أقصى حد، وعمل على توحيد الشيعة وإضرام الحماسة في صدورهم.

وأصبح التشيع عقيدة متغلغلة في النفوس ونهضوا ينادون بشارت الحسين، وغدت حادثة كربلاء الملتطخة بدماء ابن بنت الرسول مثاراً للحنن والنقمة والحماس ضد بني أمية لا بين الشيعة وحدهم بل بين جميع المؤمنين، وإن لم يكونوا من الشيعة.

ومن أشهر فرق الشيعة «الكيسانية»^(١) التي تدعو لابن الحنفية^(٢)، ومن زعمائها الكبار المكونين لآرائها المختار الثقفي^(٣) والكيسانية صاحبة نظريات متطرفة في التشيع، إذ تقول بالتناسخ وتعتبر النبوة مستمرة في البيت العلوي، وتقول كذلك بالرجعة، أي عودة الإمام المهدي، الذي هو ابن الحنفية، وأبرز شعراء الكيسانية كثير بن عبد الرحمن^(٤) الذي يقول في ابن الحنفية:

هو المهدي خبرناه كعبد
أخو الأبحار في الحقب الأولي

-
- (١) انظر عن هذه الفرقة: «التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفرايني صفحة ٣٠» و«الملل والنحل للشهرستاني ١/١٩٦» و«الملل والنحل لأبي حزم ٤/١٧٩» و«مروج الذهب للمسعودي ٣/٨٧» و«الفرق بين الفرق ٣٨» وقد نسبهم إلى كيسان مولى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه.
- (٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية (٢١ - ٨١ هـ) من زوجته خولة. رأى بعض الشيعة إمامته بعد مقتل الحسين وعرفوا باسم الكيسانية ثم انقرضوا. عاش في المدينة وتوفي بها.
- (٣) هو ابن أبي عبيد المختار الثقفي، من زعماء النازنين على بني أمية اشترك في ثورة مسلم بن عقيل فسجنه عبيد الله بن زياد ونفاه، ثم ثار في الكوفة طلباً بثأر الحسين انتصر قائده إبراهيم بن مالك الأشتر على الجيش الأموي في معركة الخازر حيث قتل عبيد الله بن زياد. قتل في محاولة يائسة سنة (٦٧ هـ) للدفاع عن الكوفة وقد حاصره فيها مصعب بن الزبير.
- (٤) هو كثير عزة توفي (٧٢٣ هـ) شاعر أموي أقام في المدينة. غالى في تشييعه وقال بالرجعة والتناسخ وبإمامة المهدي محمد ابن الحنفية تغزل بعزة فسمي بها.

وإذا كانت «الكيسانية» من غلاة الشيعة فإن «الزيدية» عند المؤرخين من فرقها المعتدلة وهي تقول بإمامة زيد بن علي^(١)، ومن أهم مبادئها «مبدأ الوصاية» وهو أن النبي أوصى لعلي بن أبي طالب عند غدير خم^(٢)، على أن الزيدية ترفض ما نادى به الكيسانية من أمر الرجعة والتناسخ، وتشرط أن يكون الأئمة من أبناء فاطمة، وأن يتميزوا بفضائل أهمها الورع والشجاعة. وأعظم شعراء الزيدية الكميّ بن زيد الأسدي «موضوع دراستنا» وهو صاحب مجموعة قصائد في الذود عن مبادئ هذه العقيدة. وفي قضية الوصية يقول:

ويوم الذّوح دوح غدير خمّ
أبان له الولاية أو أطعنا

والكميت يدحض حق بني أمية في الخلافة ويردّ على مزاعمهم ويؤيد آل البيت، كقوله:

(١) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٨٠ - ١٢٢ هـ) دعا إلى الثورة في عهد هشام بن عبد الملك، وحدد منهاجاً لثورته أهم ما جاء فيه: جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم الفيء بين أهله بالسواء ورد المطالم. فشلت ثورته وقتل. إليه ينسب المذهب الزيدي الشيعي.

(٢) غدير خم: هو نبع في واد قريب من الجحفة على الطريق بين مكة والمدينة، تقول الشيعة: إن النبي توقف عنده أثناء عودته من حجة الوداع وسمّى علياً خليفة له. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٩٠/٢، دار صادر د. ت. ومعجم البكري ٥١٠/٢ عالم الكتب بيروت ١٩٨٣.

وقالوا: ورثناها أباناً وأمناً
ومما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً
سفاهاء، وحق الهاشميين أوجب
هم شهدوا بداراً وخير بعدها
ويوم حين والدماء تصيب
فلان هي لم تصلح لحَيِّ سواهم
فلان ذوي القربى أحق وأقرب

والشعراء المادحون لآل البيت في هذا العصر كثرة منهم
الفرزدق^(١) وأبو الأسود الدؤلي^(٢)، وابن مفرغ الحميري^(٣).

(١) هو همام بن غالب بن صعصعة بن مجاشع الدارمي التميمي من شعراء المهدي
الأموي ولد في البصرة (نحو ٦٤١ وتوفي ٧٣٢) قضى حياته في مدح
الناس وهجوهم، له نفس قوي ولغة وافرة الألفاظ والتعابير. اشتهر بالهجاء
الذي دار بينه وبين جرير. له ديوان دونه محمد بن حبيب النحوي البصري.
ونقائض جرير والفرزدق.

(٢) هو أبو الأسود الدؤلي شاعر من قبيلة «دبل» من أنصار علي بن أبي طالب
حضر معركة صفين، إليه ينسب أصول النحو العربي. انظر كتاب إنباه الرواة
للفطحي ٤٨/١، مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٨٦.

(٣) هو إسماعيل بن محمد بن مفرغ الحميري أبو هاشم أو أبو عامر: شاعر
إمامي متقدم وقد أهمل ذكر الحميري وحرف الناس عن رواية شعره لما فيه
إفراط في النيل من بعض الصحابة وأزواج النبي، وكان يتمصّب لبني هاشم
تعصباً شديداً. ولد في نعمان (١٠٥) وتوفي ببغداد وقيل بواسط ١٧٣ هـ له
ديوان مطبوع جمعه وحققه شاعر هادي شكر.

ويرجع بعض الدارسين بذور التشيع لآل البيت إلى الفترة التي تلت موت النبي ﷺ. ولئن لم تظهر هذه العقيدة قوية في خلافة أبي بكر وعمر، إلا أنها غدت واضحة جلية في زمن عثمان، وظهرت بعدبيعة عليّ الذي اتخذ الكوفة مركزاً لتصرف سياسته.

ومما دعا إلى تعاظم شأن الشيعة في العراق وفارس مساواة الإمام علي بين العرب والموالي. فلما آل الحكم إلى الأمويين وتعصب هؤلاء للعنصر العربي شعر الأعاجم بالحرمان ونقموا على بني أمية وأذكوا نار الثورة عليهم. ولقد أفلق الحزب الشيعي دولة بني أمية وبرز إلى ميدان القتال، فكانت ثورة التوابين أيام عبد الملك^(١)، ثم ثورة المختار الثقفي. غير أن الشيعة لما منوا بالهزيمة، راحوا يعملون سراً ويتحينون الفرص لينتزعوا الخلافة ويجعلوها في أبناء عليّ، وقد جمعوا معهم الفرس الذين نقموا على بني أمية بسبب تعصبهم للعنصر العربي، وما لاقوه من معاملة سيئة ساعدت فيما بعد وكانت عاملاً مهماً في إسقاط الدولة الأموية.

- الحزب الأموي أو الحزب الحاكم:

لم يكن لبني أمية من المكانة في الإسلام ما كان لآل البيت

(١) هو عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ) الخليفة الأموي الخامس ولد في المدينة وتوفي بدمشق وحّد الإمبراطورية بعد أن قضى على مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله منافس البيت الأموي على الخلافة. حارب الخوارج وأوقع بهم أخضع ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في دير الجماجم. أنشأ البريد. عزب دواوين الدولة. وصك النقود الذهبية.

وأنصارهم، وما استيلاؤهم على الحكم إلا نتيجة لسياسة دينوية تقوم على الحنكة والمخادعة لا على الشريعة. لهذا كان لا بدّ لهم من نظرية يجابهون بها عقيدة الشيعة فزعموا أنّهم ورثة عثمان وأن الله اصطفاهم من بعده للخلافة وانتدبهم للثأر من قتلته.

وذهبوا إلى أن خلافتهم من عند الله وليست من عند الشعب. ومن هنا، فإن الله وحده يحاسبهم وليس على الشعب إلا القبول بما قضاه الله وقدره.

وقد لجأوا في ذلك إلى شيء من التمويه المبني على منطلق ديني هو الإيمان بقدرة الله وإراداته التي لا ترد، فقد زعموا أن الله لو لم يكن راضياً عن خلافتهم لانتهى الحكم إلى سواهم. وأطلقوا على هذه العقيدة تسمية «الحق الإلهي» التي اندفع ولاه بني أمية وشعراؤهم يروجون لها، ويعلنونها على الملأ في كل المناسبات، وكان هؤلاء يحيطون الخلفاء الأمويين بصور من المهابة والإجلال على ما كان يذهب شعراء الشيعة في نعت أئمتهم. وقد ازداد ما ستموه «حقهم الإلهي» بالخلافة رسوخاً بعد معركة صفين^(١) والتحكيم. وفي ذلك يقول شاعرهم الأخطل^(٢) :

(١) صفين: موضع على الحدود السورية على شاطئ الفرات الأيمن بين الرقة واسكي مسكنة. عنده تلاحم جيشا علي ومعاوية سنة (٣٧ هـ) وبعد هدنة مؤقتة استؤنف القتال الذي انتهى بالتحكيم.

(٢) هو غياث التغلبي الأخطل (٩٦٤٠ - ٩٧١٠ هـ) هكذا لُقّب لطول لسانه أو لارتخاء أذنيه كان نصرانياً من بني تغلب المونوفيزيين. اتصل بالأمويين فغدا شاعرهم الخاص ينصرهم بلسانه كما ينصرهم قومه برجالهم يفيض بمدحهم ويندفع في هجو أعدائهم حتى جاء بفن يجدر أن يسمى بالشعر السياسي =

وَيَوْمَ صَفِينَ وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ
أَمَدَّهُمْ إِذْ دَعَوْا مَنْ رَيَّْهُمْ مَدَدُ

وتعدت الخصومة بين الأمويين ومعارضيهم الخلاف في الرأي إلى الشتيمة والسباب، وكان الشعراء من الفريقين يجتمعون فيتبارون بالتهاجي والتفاخر، ثم يتجالدون بالسيوف، وعلى رأس هذا الفريق سديف^(١) شاعر بني هاشم، وشبيب^(٢) شاعر بني أمية.

وقد دفعت هذه الاعتبارات البيت الأموي إلى الاهتمام بالشعر واصطناع الشعراء، فأنفقوا الأموال بسخاء لإثبات حقهم في السلطة، واستخدموا الشعراء والخطباء لكي يؤيدوا ملكهم، فدخل الهجاء السياسي عصره الذهبي بفضل الحزبية العارمة آنذاك.

وكما شهد العصر الأموي نهضة الشعر السياسي شهد كذلك نهضة الهجاء الأدبي بين شعراء القبائل الذين لم يقفوا بعيداً عن ميدان الصراع. ومن أبرز مظاهر هذا الهجاء الذي تناول العصبية القبلية ما

= ديوانه كبير مشهور دون قصائده أبو سعيد السكري ومحمد بن عباس اليزيدي اهتم بنشر مخطوطاته الأب انطون صالحاني اليسوعي بين ١٨٩٠ - ١٩٣٨ في بيروت.

(١) هو سديف شاعر حجازي من أهل مكة توفى (٧٦٣) كان متعصباً لبني هاشم وفي أيام السفاح كان يحضه على بني أمية، ثم تحزب لمحمد بن عبد الله بن الحسن على المنصور العباسي فأمر المنصور بدفنه حياً.

(٢) هو شبيب بن يزيد ابن البرصاء من شعراء الدولة الأموية وترجمته طويلة في الأغاني ١٣٨/٦ توفي نحو (١٠٠ هـ).

دار بين جرير^(١) والفرزدق والأخطل، والذي عرف عند الأدباء باسم النقائض^(٢).

- حزب الخوارج:

وقد سموا كذلك لخروجهم عن طاعة علي يوم التحكيم بعد قبوله وقف القتال في صفين. والنزول على مبدأ التحكيم وكانوا يذهبون في مبادئهم إلى أن الخلافة يمكن أن تكون في قريش أو غيرها. ويحبون أن لا يكون في العالم إمام أصلاً. وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً، نبطياً أو قرشياً، رجلاً أو امرأة. وهم يعتبرون شرط الخلافة هو الإسلام والتقوى. وذلك بالاستناد لقول النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى...»^(٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٤).

وقد عرفوا في بادئ الأمر «بالحرورية» نسبة إلى بلدة

(١) هو جرير (٤٦٥٣ - ٧٣٣) شاعر أموي ولد في بادية اليمامة كنيته أبو حذرة امتاز بالهجاء لا سيما هجو خصمه الأخطل والفرزدق وقد كَوّن معهم ما سُمّي بالمثلث الأموي. له ديوان يتضمن الفنون التقليدية من مدح وهجاء وفخر وغزل ورناء جمعه أبو جعفر بن حبيب.

(٢) النقائض: جمع النقيضة: وهي قصيدة ينقض بها شاعر قصيدة شاعر آخر. أي يطل ويفسر ما جاء فيها بالرد عليه ودحض ما يقول ويدعي ويكون لها وزن قصيدة الخصم وقافيتها.

(٣) رواه أحمد بن حنبل ٤١١/٥.

(٤) سورة الحجرات الآية: ١٠.

«حروراء»^(١) قرب الكوفة التي لجأوا إليها بعد تخليتهم عن نصره الإمام. وكانوا يسمون أنفسهم «الشرأة» استناداً لقوله تعالى: «من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله» الآية^(٢).

ولقد أخذ الأمويون الخوارج بشدة وإرهاب، وعمدوا إلى إخماد ثورتهم بالقوة وسفك الدماء. أما هم فقد استماتوا في سبيل عقيدتهم، وكانوا يُلقون بأنفسهم في حومات الموت ويناضلون نضالاً رائعاً معتقدين أنهم يذهبون بذلك شهداء. وقد تعددت فرق الخوارج ومن أشهرها: «الأزارقة»^(٣) و «الإباضية»^(٤)، و «الصفارية»^(٥)

(١) حروراء: بفتحين ويكون الواو. يجوز أن يكون مشتقاً من الريح الحرور. وهي الحارة. وكأنه أُنث نظراً إلى أنه بقعة. وقيل: هي قرية بظاهر الكوفة. وقال ابن الأنباري: حروراء كورة، وقال أبو منصور: الحرورية منسوبون إلى موضع بظاهر الكوفة نسبت إليه الحرورية من الخوارج. انظر معجم البلدان ٢٤٥/٢ دار صادر.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠٧.

(٣) الأزارقة: هم فرقة من الخوارج تنسب إلى نافع بن الأزرق استولوا على الأهواز وكرمان انتخبوا قطري بن الفجاءة قاضي عليهم المهلب بن أبي صفرة. قالوا: «إن مخالفتهم من المسلمين يشركون وإن من لم يعتنق مذهبهم يستحل دمه ودم نسائه وأولاده».

(٤) الإباضية: فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن إباض وتقابل الأزارقة والصفارية. قاموا بثورات متعددة ضد الأمويين أهمها ثورة عبد الله بن يحيى (٧٤٧) بسطروا فيها نفوذهم على اليمن وحضرموت كما ثاروا على السفاح في عمان (٧٥١) ففضى على حركتهم دون أن يقضي على تأثيرهم الديني والفكري الذي انتشر انتشاراً واسعاً بين البربر أسسوا الدولة الرستمية (٧٦١ - ٩٠٨).

(٥) الصفارية: وهي فرقة من الخوارج الأزارقة والإباضية وهم أتباع زياد بن =

و «النجدية»^(١) وهم رغم تعدد فئاتهم وكثرة فرقهم يرجعون في عقيدتهم إلى أساس واحد وهو «لا حكم إلا لله» وقوام نظريتهم السياسية «المساواة» بين المسلمين كافة ورفض الوصية ومبدأ الوراثة. فالخلافة في نظرهم ليست لفئة في الإسلام دون أخرى وإنما هي حق لكل مسلم كفء، وشروط الكفاية عندهم التقوى والزهد.

وقد حارب الخوارج في البداية علي بن أبي طالب، بعد تكفيرهم إيَّاه للأسباب التي تقدّمت، كذلك حاربوا الأمويين زمن معاوية ويزيد بن عبد الملك بن مروان. وقد تمكنوا من توسيع رقعة نشاطهم في فارس، وحضرموت^(٢)، واليمامة والبحرين والموصل، وشمال العراق.

وقد أضعف الحجاج شوكتهم بحملاته المستمرة عليهم، لكنهم

= الأصفر وقولهم كقول الأزارقة في فسافة هذه الأمة ولكنهم لا يبيحون قتل نساء مخالفهم ولا أطفالهم.

انظر التبصير في الدين للإسفراييني صفحة ٥٣ عالم الكتب ١٩٨٣.

(١) النجدات العاذرية: وهم فرقة من الخوارج أصحاب نجدة بن عامر الحنفي وقبل عاصم. استولى على اليمامة والبحرين سنة (٦٦ هـ) وفي سنة (٦٩ هـ) قتله أصحابه. انظر المعبر ٧٤/١ والملل والنحل للشهرستاني ١/١٦٥. والتبصير في الدين للإسفراييني صفحة ٥٢.

(٢) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن (اليمن) بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. وبضم الميم لغة هذيل وأنشد لأبي صخر:
حَدَّتْ مَزْنَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتِ مَرِيَّةٍ
ضَجَّوْجٌ لَهُ مِنْهَا مُدَرٌّ وَحَالِبٌ

انظر معجم البلدان للحموي ٢/٢٧٠ ومعجم البكري ٢/٤٥٥ عالم الكتب.

ظَلُّوا يَثُورُونَ عَلَى الْأُمُويِّينَ حَتَّى أَوَّخِرَ دَوْلَتَهُمْ. وَمِنْ أَشْهَرِ قَادَتِهِمْ شَيْبَبُ الشَّيْبَانِيِّ^(١)، وَالضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ^(٢)، وَأَبُو حَمْزَةَ الْخَارِجِيِّ^(٣)، الَّذِي دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَخَطَبَ فِيهَا خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ وَقِيلَ بَلْ كَانَتْ الْخُطْبَةُ فِي مَكَّةَ.

وَمِنْ أَبْرَزِ شُعَرَاءِ الْخَوَارِجِ عِمْرَانُ بْنُ حَظَّانٍ^(٤)، وَالطَّرْمَاحُ بْنُ الْحَكِيمِ^(٥)، وَكَانَا يَصُورَانِ مَبَادِيءَ هَذَا الْحَزْبِ تَصْوِيرًا دَقِيقًا صَادِقًا، وَمِنْ أَهْمَمَا الْخُرُوجَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي شَعْرِهِمْ مَعَانٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَصُورٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنْ آيَاتِهِ. وَنَفَحَاتٍ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِعَقِيدَتِهِمْ وَالْإِيمَانِ

(١) هُوَ شَيْبَبُ بْنُ يَزِيدَ الشَّيْبَانِيِّ زَعِيمُ خَارِجِي وَثَائِرٍ عَلَى الْأُمُويِّينَ قَاوِمٍ جَيُوشِ الْحِجَّاجِ سَيَّرَ الْخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ جَيْشًا لِنَجْدَةِ الْحِجَّاجِ فَقَهَرَ شَيْبَاً عِنْدَ نَهْرِ الدَّجِيلِ حَيْثُ غُرِقَ وَتُوفِيَ (٧٧ هـ).

(٢) هُوَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ الشَّيْبَانِيِّ زَعِيمُ الْخَوَارِجِ الْحُرُورِيَّةِ اسْتَوْلَى عَلَى الْكُوفَةِ وَاتَّخَذَهَا مَرْكَزًا لِرَدِّ هُجُمَاتِ مَرْوَانَ الثَّانِي أَمْرَ الْخُلَفَاءِ الْأُمُويِّينَ احْتَلَّ الْمَوْصِلَ قَتَلَهُ مَرْوَانُ فِي نَوَاحِي مَارْدِينَ سَنَةِ (١٢٩ هـ).

(٣) هُوَ الْمُخْتَارُ بْنُ عَوْفٍ الْأَزْدِيُّ أَبُو حَمْزَةَ وَلَدَ فِي الْبَصْرَةِ خَارِجِيٍّ إِبَاضِيٍّ ثَارَ عَلَى الْأُمُويِّينَ وَدَعَا إِلَى مَبَايِعَةِ عَبْدِ اللَّهِ طَالِبِ الْحَقِّ فِي حَضْرَمَوْتَ حَارِبِ الدَّعْوَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ، قَتَلَ بِأَمْرِ مِنْ مَرْوَانَ الثَّانِي سَنَةِ (١٣٠ هـ) وَانْظُرْ جُمُوهَرَةَ خُطْبِ الْعَرَبِ ٢/ ٤٦٧.

(٤) هُوَ عِمْرَانُ بْنُ حَظَّانِ السَّدُوسِيِّ شَاعِرٍ فَصِيحٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ اشْتَهَرَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ أَدْرَكَ صَدْرًا مِنَ الصَّحَابَةِ رَوَى عَنْهُمْ وَزُورِي عَنْهُ، تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ الْخَوَارِجِ أَمَلَ هَدَايَتَهَا لِمَنْعِهِ فَحَوْلَتْهُ لِمَنْعِهَا فَقَدَا مِنْ أَشَدِّ دَعَا الْخَوَارِجِ، طَوَّرَ قَتْلَهُ فِي الْبِلَادِ مُتَوَارِيًا وَمَاتَ فِي تَوَارِيهِ سَنَةِ (٨٤ هـ).

(٥) هُوَ الطَّرْمَاحُ بْنُ الْحَكِيمِ الطَّلَاطِي تُوُفِيَ حَوَالِي (٧٢٣) مِنْ شُعَرَاءِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ، سَافَرَ إِلَى الْكُوفَةِ وَإِيرَانَ وَاعْتَنَقَ مَذْهَبَ الْخَوَارِجِ فَقَدَا مِنْ كِبَارِ شُعْرَائِهِمْ لَهُ دِيوَانٌ.

بها والإقبال على الموت في سبيلها، يقول الطرماح:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له
إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد
إلا المنيب بقلب المخلص الشاري^(١)
وهنا يذهب الطرماح إلى أن النجاة من النار يوم القيامة لا تكون
إلا بالرجوع إلى الله والموت في سبيله.

- الحزب الزبيرى:

أما حزب الزبيرين فقد بدأ بالظهور زمن معاوية، وكان هذا
الحزب يعارض معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد^(٢)، لكن معاوية
تمكن من غرضه بالحيلة والدهاء. ولقد كان على رأس الزبيرين
عبد الله بن الزبير^(٣) أحد زعماء قريش الذي وقف في وجه الأمويين

(١) يشير في البيت الثاني إلى الآية التي وردت في سياق الكلام على عقيدة الخوارج.

(٢) هو يزيد الأول الخليفة الأموي الثاني ابن معاوية وميسون الكلية (٢٥ - ٦٤ هـ) اشترك في حياة والده في حملة على القسطنطينية، في عهده قتل الحسين بن علي في كربلاء (٦١ هـ) أرسل حملة إلى المدينة ومكة بقيادة مسلم بن عقبة والحسين بن النمر لإخضاع منافسه ابن الزبير، انصرف إلى اللهو والخمرة. غير أنه أصلح الإدارة والمالية توفي «بحوارين» من أرض حمص.

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام (١ - ٧٣ هـ) وأمه أسماء كبرى بنات أبي بكر =

ودعا بالخلافة لنفسه بعدما صانع معاوية طيلة عهده وبائع يزيداً ولكنه نقض بيعته بعد مقتل الحسين، وأعلنها ثورة فعلية، فاستجاب له كثيرون وبائعوه بالخلافة، فحاربه يزيد دون أن يتمكن منه.

وبعد موت يزيد استقر الأمر لابن الزبير واشتد فاستولى على الحجاز بكامله وعلى العراق واليمن ومصر، وكان قد أرسل أخاه مصعباً^(١) إلى العراق ليأخذ له البيعة من أهله، وقسم من بلاد الشام، وساعدته القبائل القيسية وكاد أمر الخلافة يؤول إليه، حتى أن مروان بن الحكم^(٢) همّ بمبايعته فردّه عن ذلك عبد الله بن زياد. ولكن انتصار مروان بن الحكم بمؤازرة القبائل اليمنية في معركة مرج

= وأخت عائشة زوج النبي. اشترك في فتوحات فارس ومصر وشمال إفريقيا حارب إلى جانب عائشة في معركة «الجمل»، عاش في المدينة وعارض خلافة يزيد الأول ابن معاوية. ثار على ولادة الأمويين في الحجاز وأعلن نفسه خليفة حافظ على نفوذه في العراق بعد معركة «مرج راهط» قضى عليه الحجاج وأخضع مكة والمدينة لنفوذ البيت الأموي.

(١) هو مصعب بن الزبير (٢٦ - ٧١ هـ) أخو عبد الله بن الزبير. ناب عن أخيه في العراق. قاوم الخوارج بشدة وحارب المختار الثقفي وقضى عليه (٦٨٧). خرج إليه عبد الملك بن مروان بنفسه على رأس جيشه وعرض عليه الأمان وولاية العراقيين. على أن يرجع عن القتال، فأبى. قتل في المعركة عند دير الجاثليق. اشتهر بشجاعته وكرمه.

(٢) هو مروان بن الحكم (٢ - ٦٥ هـ) الخليفة الأموي الرابع به انتقلت الخلافة من السفينيين إلى المروانيين. دافع عن عثمان واشترك في معركة الجمل. بوع بالخلافة في الجابية ثم في دمشق. انتصر على القيسيين أنصار ابن الزبير في معركة «مرج راهط» واستولى على مصر. ضبط المقاييس والموازين. مات بالطاعون في دمشق.

راهط^(١) كان ينذر بالقضاء على زعامة ابن الزبير. وحين انتقلت الخلافة إلى عبد الملك سبر جيوشه إلى العراق فقتل مصعباً ثم أرسل الحجاج ليتولى شأن أخيه عبد الله في الحجاز فحاصره الحجاج في مكة وقتل ابن الزبير وأنصاره بعد أن قضى عليهم الحجاج قضاءً مبرماً.

وكان الزبيرون يستندون في دعوتهم إلى:

(أ) - إن الخلافة حق لقريش وحدها، وقد أعلن أبو بكر ذلك يوم السقيفة^(٢) وعبد الله بن الزبير من كرام قريش وزعمائها وحفيد أبي بكر من ابنته أسماء فلماذا لا تكون الخلافة له؟ لا سيما وأنه بعد موت معاوية أصبح أكثر القرشيين كفاءة وعلماً وفضلاً وتقى، بينما يزيد خليفة معاوية مشهور بالخلاعة والمجون.

(ب) - إن عبد الله نشأ في بيت النبي ﷺ، وقد ربته عائشة، وشهد كثيراً من المواقع، وسماه الرسول حوارية «أي تلميذه»^(٣) وهو

(١) مرج راهط: موضع في سورية شمالي دمشق. اشتهر بالمعركة التي انتصر فيها مروان بن الحكم على القيسيين وقائدهم الضحاك سنة (٦٨٤). ووطد أركان الخلافة الأموية.

(٢) يوم السقيفة: هو يوم بيعة الصديق: حين اجتمع الأنصار بعد موت النبي ﷺ على سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة ليبايعوه، فذهب إليهم أبو بكر ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة. وروى لهم أن النبي ﷺ قال: «لا يصلح هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش» فرجعوا إلى قوله وبايعه عمر ثم بايعه الناس. انظر فتوح البلدان للبلاذري صفحة ٣٣ وما بعدها - دار الكتب العلمية.

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة باب فضائل أصحاب رسول الله (١١) رقم الحديث ١٢٢ وهو عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ يوم قريظة: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا. فقال: «من يأتينا بخبر القوم؟» قال الزبير: أنا. =

أحد الستة الذين اختارهم عمر للشورى؛ وهو الذي أمره عثمان على داره حين حاصره الخصوم، ولهذه الأسباب كان الاعتقاد بأن الخلافة من حقه لا من حق أحد سواه.

ومن الشعراء الذين اتصلوا برجال هذا الحزب عبيد الله بن قيس الرقيات^(١) الذي التحق بمصعب وأكثر من مديحه ونال من الأمويين بغزله الفاحش وتعرضه فيه لأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك^(٢). على أن ابن قيس الرقيات لم يكشف في شعره عن ملامح بينة في سياسة الحزب الزبيري، ولم يكن داعية صريحاً لمعتقدهم السياسي^(٣).

= ثلاثاً. فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حواري، وإن حواري الزبير». ورواه أيضاً البخاري باب الجهاد ٤١ - ومسلم في فضائل الصحابة ٤٨ - وأحمد بن حنبل ٨٦/١.

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات توفي نحو (٧٠٥) شاعر قرشي. ناصر الزبيريين ثم والى الأمويين «ديوانه» يحوي اشعاراً سياسية تاريخية.

(٢) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (٤٨ - ٩٦ هـ) أبو العباس: من ملوك الدولة الأموية في الشام في زمنه امتدت حدود الإمبراطورية الأموية إلى بلاد الهند، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام. وكان نقش على خاتمه: «يا وليد إنك ميت». انظر الأعلام ١٢١/٨.

(٣) إذا تأملنا قصائد الشاعر في مديح مصعب لم نجد فيها عرضاً لمبادئ الحزب الزبيري أو تأكيداً لعقيدة زبيرية. فقد كان يعظم قريش ويشيد بأمجادها حتى اعتبر بحق شاعر قريش، والقصيدة الهزمية في مدح مصعب من قصائده الدالة على ميزة شعره ونزعة السياسية ومنها:

أفقرت بعد عبد شمس كداء

فكدي فالركن فالبطحاء

وحسان مثل السدمى عثيماً

- حزب الأنصار:

كانت عداوة الأنصار لبني أمية شديدة بدأت في حياة النبي ﷺ حين حاربوا إلى جانبه ضد أبي سفيان^(١)، وقويت أيام عثمان حين تسلط الأمويون على شؤون الدولة وأساءوا إلى حرمة الأنصار ومصالحهم. ولما تولى عليّ الخلافة كان الأنصار أحلافه، ساعدوه في معركة الجمل^(٢)، وحققوا له النصر، كما ساعدوه في وقائع كثيرة ضد معاوية حتى ضجّ معاوية من بطشهم وقال: «ما سألت عن فارس مات من أهل الشام إلا قيل لي قتلته الأنصار».

لقد أخذ الأنصار يشفون ما في صدورهم من غلّ نتيجة كرههم الشديد للأمويين، فقد اندفع شعراؤهم يهجون بني أمية بالسنة حداد، ويتغزلون بنساء الأمويين كيداً لهم، لكن دهاء معاوية وسياسته كانا

= ت عليهنَّ بهجّة وحياء
لا يعين العياب في موسم النسا
من إذا طاف بالعياب النساء

(١) هو صخر بن حرب بن أمية أبو سفيان (توفي ٣١ هـ). ثري مكّي من قريش كان من أشدّ المناوئين للإسلام. قاد المشركين ضد المسلمين في أحد والخندق. أسلم يوم فتح مكة وجاهد مع المسلمين. والد معاوية مؤسس الدولة الأموية.

(٢) جرت بين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وعائشة سنة (٣٦ هـ) سميت كذلك لأن عائشة كانت تثير حماس المناوئين لعلي وهي على جملها. أسرت ثم أطلق سراحها.

كفيلين بإسكات الأنصار، فلما قام الحزب الزبيري انضم قسم إليه وانضوى القسم الآخر إلى التشيع.

تلك صورة عن الحركات السياسية في العصر الأموي. أما النظام السياسي الذي أشرنا إليه في مطلع هذا الفصل، فقد كان نظام الخلافة الموروثة وكان معاوية أول الخلفاء الأمويين، وهو الذي حوّل الحكم في الإسلام من الشورى إلى ملك وراثي تتوارثه أولاده معتمدين على القوة والدهاء. وكان الأمويون يستعينون في تصريف أمور الدولة بآراء ذوي الحنكة الذين هم بمثابة وزراء. وقد أطلق بالفعل لقب الوزير على زياد بن أبيه في عهد معاوية وعلى روح بن زنباع^(١) زمن عبد الملك.

وقد وسّع الأمويون نظام الكتابة في دولتهم نظراً لتشعب الوظائف آنذاك وكان عدد الكتاب في نظامهم خمسة، أرفعهم شأنًا كاتب الرسائل، والأربعة الباقون يتولون على التوالي شؤون الخراج، والجند، والشرطة والقضاء، وأشهر كتاب الرسائل سالم كاتب هشام بن عبد الملك وعبد الحميد^(٢) كاتب مروان بن محمد.

(١) هو روح بن زنباع بن سلامة الجذامي أبو زرعة توفي (٨٤ هـ) أمير فلسطين كان عبد الملك بن مروان يقول عنه: جمع طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز. الأعلام ٣/ ٣٤ دار العلم للملايين ١٩٩٠.

(٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري المعروف بالكاتب. يضرب به المثل في البلاغة وعنه أخذ المترسلون، أصله من قيسارية سكن الشام، واختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية. ويقال: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد». له رسائل تقع في ألف ورقة طبع بعضها. توفي (١٣٢ هـ) في بوصير (مصر). انظر أمراء البيان ١/ ٣٨ والأعلام =

ومن الوظائف السياسية الهامة زمن الأمويين وظيفة الحجابة، فقد اتخذ معاوية حاجباً يمنع أحداً من الدخول عليه إلا بعد استئذانه. أما من حيث الإدارة فقد وسَّع الأمويون نظام الدواوين. قال الماوردي في تعريفه: «والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيش والعمال»^(١).

وكان عمر بن الخطاب أول من اتخذ الديوان في الإسلام. ولفظه ديوان فارسية الأصل، وتعني السجل، وقد أطلق هذا اللفظ على المكان الذي تحفظ فيه الدفاتر والسجلات. وقد كانت أعمال الدولة الأموية الإدارية تستند إلى أربعة دواوين وهي: الرسائل والخراج والإيرادات، وديوان الخاتم الذي تحفظ به أوامر الخليفة وهو أعظم الدواوين^(٢).

وقد ظلت الدواوين تعتمد على الأساليب الدخيلة، من رومية وفارسية، وأول من أمر بنقل الديوان إلى العربية عبد الملك بن مروان. فزاد هذا من تعزيز العرب وساعد على تطور لغتهم، وإقبال الأعاجم على إتقانها والبراعة فيها.

وكان الخليفة الأموي يُعيِّن الولاة على الأمصار. وقد بلغ عدد الولايات في ذاك العصر خمساً تنتظم رقعة الدولة من الهند إلى

= ٢٩٠/٣ والوزراء والكتاب ٧٢ - ٨٣.

(١) انظر كتاب مواقف في الأدب الأموي د. عمر فاروق الطباع صفحة (٢٧) دار القلم بيروت ١٩٩١.

(٢) وهذا الديوان استحدثه معاوية.

المحيط الأطلسي والأندلس^(١) . ونظراً لاتساع الدولة عما كانت عليه في صدر الإسلام، فقد أدخل معاوية نظام البريد مقتبساً إياه عن الفرس والروم لربط مركز الحكم بسائر الأقاليم والأنحاء، وقد أصاب هذا النظام الكثير من التقدم في خلافة عبد الملك الذي كان لا يمتنع عن حامل البريد في الليل أو النهار . وكما شهد العصر الأموي العناية بالأنظمة السياسية والإدارية، فقد عرف أيضاً الاهتمام بالأنظمة المالية، والحرية والقضائية^(٢) .

الحياة الاجتماعية:

تغيرت الحياة الاجتماعية في عصر بني أمية عما كانت عليه في صدر الإسلام . فبدأت تبعد عن البداوة وتأخذ بأسباب جمعة من التحضر بفضل اتساع الفتوحات واتصال العرب بسكان الأقاليم المفتوحة، ودخول غير العناصر العربية في الإسلام . وقد كان للامتزاج بين هذه العناصر أثره الواضح في ازدهار الاقتصاد وال عمران والسياسة التي اتبعها الخلفاء الأمويون في تسيير دفة الحكم، أبرز

(١) بلغت الدولة الإسلامية أوسع حدودها في زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . وباتت تشمل بالإضافة إلى أقاليم الحجاز ومصر والعراق والشام، بلاد ما وراء النهر فوصلت شرقاً إلى حدود الصين وضمت بلاد السند وبعض بلاد البنجاب . واجتاحت شمالاً أرمينيا وأذربيجان مفتحة الأناضول حتى القسطنطينية . أما في الغرب فقد افتتح العرب شمالي إفريقيا إلى المحيط الأطلسي واجتازوا البحر إلى إسبانيا أو «فاندلوسيا» التي عرفت باسم الأندلس .

(٢) انظر بهذا الصدد كتاب الأحكام السلطانية للماوردي .

الآثار في تطوير الحياة الاجتماعية.

واختلفت مظاهر هذا التغيير بين قطر وقطر وبيئة وأخرى من القطر نفسه، فالقطر الحجازي الذي كان مهد الإسلام ومركز الخلافة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين لم يعد كذلك في عهد بني أمية، إذ انتقلت الخلافة إلى الشام وغلب على الحجازيين تياران: تيار اللهو والغناء، والتيار الديني.

- وقد وصف الجاحظ^(١) دولة بني أمية فقال: «إنها عربية أعرابية» وهذا الوصف يصح من ناحيتين:

١ - كون العنصر العربي، هو العنصر السائد في هذا العصر. فقد خالف الأمويون تعاليم الإسلام. وميزوا بين العرب والأعاجم، فخصوا العنصر العربي بالمرتبة الأولى في هذا المجتمع وعولوا عليه في تنفيذ سياستهم، وإدارة شؤون دولتهم، مع أن تعاليم الدين تدعو إلى المساواة وتعتبر التقوى أساساً في كل مفاضلة كما في قوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»^(٢).

٢ - اتبع الأمويون سياسة التفريق بين العرب تلك السياسة التي كان لها اليد الطولى في إحياء العصية القبلية من جديد. وخاصة في العراق. فانبرى الشعراء في هذا القطر يعيدون تراث الجاهلية على

(١) هو عمرو بن محبوب أبو عثمان الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ) رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. له تصانيف كثيرة منها «الحيوان» و«البيان والتبيين» و«الخلاصة». انظر الأعلام ٧٤/٥.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

صفحة الشعر بمفاخر قبائلهم ومآثرهم من ناحية، ومثالب خصومهم من ناحية ثانية، وياتت سوق المربد في البصرة والكناسة في الكوفة منبراً للعصبيات المتنافرة، التي أذكت نار الحمية البدوية من جديد.

هذان مظهران يؤكدان ما ذهب إليه الجاحظ ويكشفان عن الطابع العربي في الدولة الأموية. غير أن هذا الطابع يكاد يقتصر على الجانبين السياسي والأدبي في هذا المجتمع أكثر مما يمثل العائمة، لأن الاتصال بسكان الأقاليم المفتوحة ودخول العناصر غير العربية في الإسلام والامتزاج بين هذه العناصر بفعل التجاور والاختلاط والتزواج والمصاهرة.

فحقيقة المجتمع الأموي إذاً كونه مجتمعاً عربياً في صميمه وطبيعته، ولكنه مجتمع عربي أخذ بنصيب وافر من مراحل التمدن وأزياء الحياة المدنية، باستثناء البيئة الاجتماعية في بطاح نجد وبواديها.

فالحياة في مدن الحجاز وخاصة في مكة والمدينة، كانت على جانب ملحوظ من الإغراق في معطيات الثراء العريض، والغنى الوفور. انجرف له قسم كبير من سكان مكة والمدينة التي شاءت سياسة بني أمية أن تصرفهم عن الحكم، وأن تحوّلهم شطر الرفاه في العيش. فهي حياة رخية ناعمة تجد مسرحها في محافل الفناء، وندوات اللهو والطرب. فأغدقت عليهم النعم وجعلت الأموال تنصب على مدنها من التجارة والغنائم والفيء والمعاشات الضخمة التي وظّفها لشباب قريش بعد أن فرضت عليهم الإقامة الجبرية في الحجاز لا يبرحونه إلا بإذن الحاكم أو الخليفة. فتبسط الحجازيون على النعيم، وعكفوا على متارف العيش يفترون منها ما بوسعهم، ويتملون

من ملذات العمر. يعضدهم في ذلك ظرف في طبائعهم، ووداعة في نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وفصاحة ولسن وميل إلى الطرب واللهو والعيش المنعم.

وبفضل هذه الحياة ازدهرت مجالس الغناء وأصبح الحجاز متجعاً للمغنين والمغنيات كابن سريج^(١)، والغريص^(٢)، ومعبد^(٣) وحبابة^(٤)،

(١) هو عبيد الله بن سريج من أشهر المغنين وأصحاب هذه الصناعة في صدر الإسلام (٢٠ - ٩٨ هـ) كان يغني مرتجلاً فيأتي باللحن المبتكر وهو من أهل مكة وأول من ضرب بها على العود بالغناء العربي، انظر الأعلام ١٩٤/٤، الأغاني ٢٤٨/١، وورد اسمه في نسخها مختلفاً عبيد الله، وعبيد، وعبد الله.

(٢) هو عبد الملك مولى العبلات من مولدي البربر: من أشهر المغنين ومن أحذقهم في صناعة الغناء سكن مكة وغنى سكينه بنت الحسين. وكان يضرب بالعود وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب. كنيته أبو يزيد أو أبو مروان. ولقب «الغريص» لجماله ونضارة وجهه. توفي نحو (٩٥ هـ). انظر الأعلام ١٥٦/٤، الأغاني ٣٥٩/٢.

(٣) هو معبد بن وهب أبو عباد المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي. نشأ في المدينة يرعى الغنم وربما اشتغل في التجارة. ولما ظهر نبوغه في الغناء أقبل عليه كبراء المدينة. ثم رحل إلى الشام فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه. وكان أديباً فصيحاً، وعاش طويلاً إلى أن انقطع صوته. ومات في عسكر الوليد بن يزيد سنة (١٢٦ هـ). انظر الأعلام ٢٦٤/٧، والأغاني ٣٦/١.

(٤) هي حبابة: جارية يزيد بن عبد الملك مغنية، من ألحن من رثي في عصرها، ومن أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً. قرأت القرآن ورويت الشعر وتعلمت العربية. وهي مولدة كانت لرجل من أهل المدينة يعرف بابن رمانة خرجها وأدبها. فأخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز وطبقتهما، فاشتراها يزيد بن عبد الملك بأربعة آلاف دينار، فقلبت على عقله وشغل =

وسلامة^(١)، وطويس^(٢)، وقد كان لهؤلاء وأولئك أثر قوي في ازدهار الغناء وتحضر الشعر الغنائي في هذا العصر. وقد حفل كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني^(٣) بذكر المغنين والمغنيات وإقبال الناس على مجالسهم.

وهكذا وجد المجتمع الحجازي في هذه الأجواء الغنائية منصرفاً له عن إخفاقه السياسي، فأذاب همومه في السماع ونال من خلجات الأوتار، وغناء الحناجر، ما خفف به أجيج السخط ولظى النقمة على السلطان الأموي. وقد أدى مجتمع المجون واللهو هذا إلى تطور في الحياة الاجتماعية وفي الأخلاق وسبل العيش والأنظمة والمآكل والمشارب والملابس والمساكن. فما عاد الحجازيون ذوي خشونة

= بها. ثم ماتت سنة (١٠٥ هـ) فحزن عليها ومات بعدها بأربعين يوماً. انظر الأعلام ١٦٣/٢، أعلام النساء ١٩٥/١.

(١) هي سلامة القس مغنية شاعرة من مولدات المدينة، أخذت الغناء عن معبد وطبقته شغف بها عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي (من قراء مكة) الملقب بالقس لكثرة عبادته فنسبت إليه توفيت (نحو ١٣٠ هـ) الأعلام ١٠٧/٣.

(٢) هو عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم مولى بني مخزوم أول من غنى بالمدينة غناء يدخل في الإيقاع. ولد في المدينة (١١ هـ) وتوفي في السويداء (٩٢ هـ) وفيه ضرب المثل (أشام من طويس) لما يقال من أنه ولد يوم وفاة النبي ﷺ. وفطم يوم مات أبو بكر وختن يوم قتل عمر وتزوج يوم قتل عثمان وولد له يوم قتل علي. انظر الأعلام ١٠٥/٥، وفیات الأعيان ٤٠٠/١.

(٣) هو علي بن الحسين بن محمد أبو الفرج الأصبهاني من أئمة الأدب (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ). عارف في التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي، ولد في أصفهان. ونشأ وتوفي في بغداد له (الأغاني) جمعه في خمسين سنة لم يعمل في بابيه مثله. الأعلام ٢٧٨/٤، يتيمة الدهر ٢٧٨/٢. تاريخ بغداد ٣٩٨/١١.

ولا أهل شظف، وإنما رُقَّ عيشهم، وسكنوا القصور، وأقبلوا على الدنيا وتعلقوا بجانب من حضارة الأمم المغلوبة وأساليب حياتهم واقتنوا الجواري الروميات والفارسيات والهنديات، وشاع بينهم العبث وشرب الخمر.

وإلى جانب تيار اللهو والغناء الذي غلب على حواضر الحجاز، قام جماعة من المتدينين هم بقية الصحابة وتابعوهم. وكانت مكة قبلة المسلمين ومزار حجَّهم، والمدينة مدفن النبي ﷺ والصحابة مقصداً لوفود طالبي العلوم الدينية. فأحدث ذلك حركة دينية تجلَّت في ثلاث نواح:

- أولاها: دراسة القرآن وتفهمه وتفسيره.

- والثانية: رواية الحديث وغربله والتثبت من صحته وجمعه.

- والثالثة: استنباط الأحكام من القرآن والحديث والسنة لتطبيقها على جميع الناس في كل ما يصدر عنهم من أعمال وأقوال دينية أو دنيوية وهذا ما سُمِّي بالتشريع.

وهكذا نشطت العلوم الدينية في الحجاز فكان من نتيجتها ظهور أول مذهب من مذاهب الفقه هو المذهب المالكي لصاحبه مالك بن أنس^(١) وأول كتاب في هذا الموضوع هو كتاب الموطأ لمالك نفسه.

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية مولده ووفاته في المدينة (٩٣ - ١٧٩ هـ). أصله من أمراء حمير له: «الموطأ» الذي هو أساس المذهب «الرد على القدرية»، «الرسالة إلى الرشيد»، «المدونة الكبرى».

ولم يكن جميع أهل الحجاز يحيون حياة الترف في عصر بني أمية وإنما كان منهم معدمون، لم تبلغهم غنائم الفتوح، ولا أرباح التجارة ولا أعطيات بني أمية. ونخص بالذكر سكان البوادي، والضاربين في بطاح نجد. هؤلاء ظلّوا على بداوتهم يعيشون مما تدره عليهم مواشيههم ويتقلون بخيامهم في سبيل انتجاع الماء والمرعى. عاداتهم ظلت أقرب إلى عادات الجاهلية من حيث محافظتهم على الشرف، ومنعة العرض. لكنّ الصراع القبلي بينهم قد خف وضعف. وما عاد لهم مثل أعلى أو شيء يفخرون به في الحياة كما كانوا يفخرون في أيام الجاهلية. بعد واقعة مرج راهط التي دارت رحاها بين القيسية من جهة والتي كانت ضد الأمويين وتغلب وبكر من جهة ثانية وكانت الغلبة فيها لتغلب.

أما مجتمع الشام، فقد ألّف بين أهل الذمة ونزله غالبية عظمى من القبائل اليمنية التي التأمّت حول البيت الأموي وناصرته ضد خصومه والناشرين عليه فتمتع هذا القطر بكثير من هبات الحاكمين وفاز بأسباب الرعاية والاستقرار لبعده عن مواطن الفتن والثورات في العراق وخراسان.

وقد كانت الشام مركزاً حضارياً قديماً، وحين افتتحها الرومان في القرن الأول قبل الميلاد قاموا بترتيب الإدارة والتنظيم فيها واهتموا بتجميل أبنيتها وخاصة أنطاكية ودمشق وتدمر، وبتوسيع نطاق تجارتها وصناعاتها فحولوا كثيراً من البقاع إلى جنات ومزارع. وقد أصبحت صادراتها الزراعية من حبوب وخمور وزيت وفواكه، ومنتجاتها الصناعية من نسيج القطن والحريز والكتان وآنية النحاس والزجاج تنقل إلى كافة المعمورة.

وقد ضمت بيئة الشام المشتغلين بالجدل الفلسفي والنقاش الكلامي والأدباء الوافدين على البلاط طمعاً بالجوائز والأموال. ومع هذا المجتمع الذي كان مركز النشاط الإداري والسياسي، ومنه تنطلق أوامر الخلفاء إلى العمال والولاة في أرجاء الدولة الواسعة، فقد وجد سبيله إلى حياة الرخاء. ولم تحرم الخاصة فيه من حياة الترف ووسائل الترفيه. وكان من الطبيعي أن تنتقل دنيا الغناء إلى قصور الخلفاء والأمراء التي عنيت بمجالس الطرب وحفلات بضروب من الفن الغنائي وتنافس الأمراء في اقتناء الجوارى والمغنيات. فقد هام يزيد بن عبد الملك «بحبابة» وفتن بها كما شغف بصاحبته «سلامة» وراجت تجارة القيان. ومما ساعد على توفير هذا الجو حالة الاستقرار النسبي التي سيطرت على الشام آنذاك فقد كان بين الأمويين وبلاد الشام علاقات طيبة منذ أن كان معاوية والياً عليها، ولذلك لم تشب فيها ثورات، ولا تشدد الأمويون على أهلها، فانتظمت أمورهم وانصرف أهلها إلى نشاطاتهم الاجتماعية من تجارة وصناعة وعمران وزراعة.

أما مجتمع العراق فكانت الحياة فيه ملأى بالاضطراب والثورات طيلة العهد الأموي، وقد تميز عن المجتمع السابق بحياة الجد إذ كان مركزاً لحزبين من الأحزاب المعارضة هما الشيعة والخوارج. ويعيش في ربوعه جماعات متباينة الأهواء والنزعات، لذلك ساد المجتمع العراقي الصراع السياسي، ولم يفز كالأقليمين السابقين بقدر كبير من الحياة اللاهية، ولم تغزه أفانين الغناء التي عمّت بيئة الحجاز المتحضرة. وقد اصطبغت الحياة الأدبية في هذا القطر بواقع هذه الحياة الاجتماعية فكانت الخطابة الحزبية والشعر السياسي ميداناً

لقرائح البلغاء ومذاهب الأفذاذ من الشعراء...

ومن خلال هذه الصور المجملة للحياة الاجتماعية في ثلاثة أقاليم من الدولة الأموية يتضح أن سكان هذا المجتمع كانوا طبقات عدة:

١ - طبقة الخاصة من الأسر القرشية صاحبة الرئاسة وحاملة لواء الحكم والسيادة وهي الطبقة التي جمعت عزّة الغلبة إلى شرف المكانة والثورة، فهيمنت على شؤون الإدارة والسياسة ونعمت بخفض العيش وتاهت بما للنبلاء من شرف فكانت أعلى طبقات هذا المجتمع وأرفعها منزلة وأعلاها حكمة.

٢ - طبقة أهل الذمة من نصارى ويهود وقد أعطتهم الدولة عهداً بحماية أرواحهم وممتلكاتهم لقاء جزية يدفعونها.

٣ - طبقة الموالي وهم المسلمون من غير العرب وكانوا في الأصل أسرى حرب بمنزلة الرقيق، ثم أسلموا فعتقوا فأصبحوا الموالي. ولاقى الموالي الكثير من الاحتقار في عهد بني أمية حتى كان يقال: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى». وكانت حالتهم الاجتماعية من حيث الحقوق والواجبات أحط من طبقة العرب^(١). ولكن ذلك لم يمنع وصول جماعة منهم إلى الوظائف العامة، ولئن

(١) كانوا يساقون إلى الحرب مشاة، ولا يحق لهم الزواج من عربية ولا ينالون نصيباً كاملاً من الرزق والعطاء. انظر الحضارة العربية الإسلامية لعلي الخربوطلي، صفحة (١٢٤).

لم يصل الموالي إلى منزلة العرب في فنون الأدب فقد كان لهم من تراث أمهم الغابر وثقافتهم الأصيلة ما ساعدهم على النبوغ في الكتابة والعلوم.

٤ - طبقة الرقيق والرقيق لغة: حرمان الفرد من حريته الطبيعية بحيث يصبح ملكاً للغير. وكان العرب يسترقون حاميات المدن التي تقاومهم مقاومة عنيفة. ثم زاد عدد الرقيق إثر الفتوحات الإسلامية أيام الوليد بن عبد الملك وخلفائه، وأصبح هناك أسواق للنخاسة، حتى صار لبعض العرب عشرات بل مئات من العبيد.

والرقيق نوعان خصيان: وهم يستعملون للخدمة في دور النساء خاصة، ويقال إن معاوية هو أول من اتخذ الخصيان لخدمته؛ والجواري: ويستعملن للرقص والغناء والخدمة في القصور.

ولئن كانت السيادة في المجتمع الأموي للعرب دون غيرهم من الأمم والشعوب، ولئن اتسمت بعض جوانب هذا المجتمع بروح البداوة، فلا شك أن طوابع الحياة العامة، نتيجة التفاعل بين فئات هذا المجتمع لم تبق مشدودة إلى الماضي، ولم تعد تستمد نماذجها من التقاليد الجاهلية. فقد اقتبس أمراء الدولة من أنظمة الروم التي كانت معروفة في حواضر الشام وظيفة «الحجابه» وابتناء القصور الأنيقة، والدارات الفخمة، وألوان الأطعمة، فتغيرت عادات العرب في المآدب وحفلت موائدهم بأصناف المآكل الجديدة. ومثل ذلك في اللباس وسائر التقاليد الاجتماعية، وكَلَّفَ كبار القوم بالصيد فنام عن شغف زاد من العناية حتى بكلاب القنص ولباسها، فقد ألبسوها

الأنسجة وجعلوا أساور الذهب في أعناقها وخصّصت العبيد لخدمتها والسّهر عليها.

هذا قليل من كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الأموي ولنتقل الآن إلى الحياة العقلية.

الحياة العقلية:

يقنضي الكلام على الحياة العقلية في العصر الأموي تعداد العناصر التي شاركت في هذه الحياة وعملت على تكوينها، فقد بدأ في هذا العصر تكوّن العلوم التي نمت ونضجت في العصر العباسي. فنشأت العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية، أما الشرعية فأهمها:

- قراءة القرآن: فقد اختلف الناس بعد موت النبي ﷺ في قراءة بعض الآيات، مما دعا إلى تنظيم هذه القراءات على أسس دقيقة.

- التفسير: عمد الصحابة إلى ضبط التفسير بعد أن كانوا يتناقلونه شفهاً طيلة القرن الأول للهجرة.

- الحديث: ويأتي الحديث بعد القرآن في الأهمية.

- الفقه: احتاج الخلفاء إلى نظم وشرائع يقضون بها بين رعاياهم فرجعوا إلى القرآن والحديث يستخرجون منهما القوانين التي يطبقونها في تنظيم حكومتهم وفي ضبط شؤون الناس بأحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية.

وأما العلوم اللسانية فهي التي ترجع إلى ضبط اللغة العربية

كالنحو والصرف والحركات والأعجام. فإن اختلاط الأعاجم بالعرب أدى إلى فساد اللغة قراءةً وكتابةً، مما حمل جماعة من العرب عرفوا قواعد اللغتين السريانية واليونانية، على وضع قواعد اللغة العربية فكان أبو الأسود الدؤلي أول من انشأ علم النحو عند العرب (نحو ٦٩ هـ).

وقد استفاد العرب في وضع علومهم الشرعية واللسانية وتطويرها من العلوم الدخيلة التي عرفوها عند السريان والفرس والهنود واليونان والتي بدأوا بنقلها إلى العربية. ولكن هذا النقل ظل محدوداً في العصر الأموي.

وبعد دراسة العناصر التي شاركت في صنع الحياة العقلية في العصر الأموي يمكن القول بأن من ساعد على تطور هذه الحياة يعود إلى أمور ثلاث:

١ - الفكر العربي الأصيل الذي يتجلى في آداب الجاهلية، لغةً وشعراً وخطابةً وقصصاً وأمثالاً.

٢ - الفكر الإسلامي الذي هو من ثمار العقيدة الإسلامية، وقد شمل القرآن والحديث والتفسير والفقه، وعلم القراءات، وما نشأ من العلوم اللسانية كاللغة والنحو والبيان وعلم الحركات والأعجام، والتي كانت في البدء أداة لفهم أغراض الدين وتعاليمه.

٣ - الفكر الدخيل وهو هذه العلوم العقلية التي كانت معروفة في الأمصار المفتوحة والتي أخذت تغزو الفكر العربي، سواء عن طريق المجاورة والاختلاط، أو بسبب حركة النقل

والترجمة، وفي مقدمتها: الطب والكيمياء والفلك.

وكان للنشاط العقلي مراكزه أولها العراق: الكوفة والبصرة: حيث لم يكن في الأول الهجري مدينة تستطيع منافستهما، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه، وفيهما نشأت مذاهب النحويين واللغويين. وفي البصرة قامت مجالس تناقش فيها المسائل السياسية والدينية^(١). كما قام سوق المريد حيث يجتمع الشعراء والخطباء، يتناشدون ويتناقشون، والمريد في العصر الأموي كسوق عكاظ في الجاهلية.

أما مدن الحجاز كالمدينة المنورة ومكة فقد كانت مراكز لعلوم الحديث والتفسير بالنظر لوجود الصحابة والتابعين فيها.

وقيل: لا يمكن أن نغفل أثر الثقافات الدينية وفلسفاتها التي سبقت ثقافة الإسلام والتي ساعدت في تطوير الحياة العقلية الإسلامية، ونشأة الجدل الديني الفلسفي الذي بدأ يتكوّن في ظل الدولة الأموية والذي عمّقت جذوره وامتدت أصوله وتفرّعت في عهد الدولة العباسية.

(١) «مسألة القضاء والقدر... ومسألة ذات الله وصفاته».

الحياة الأدبية:

أثرت البيئة الأموية في الأدب من جميع النواحي، وانعكس هذا التأثير على الأدب، فقد راج الشعر بعد أن كان خافت الصوت في أيام النبي ﷺ والراشدين، ووثب واثبات كبرى حتى شغل جمهور الناس به من الخلفاء إلى الولاة والقواد، إلى الأئمة والفقهاء ورجال الدين، إلى مختلف طبقات الشعب رجالاً ونساءً. فخالف في ذلك ما كان عليه بدء الدعوة الإسلامية، وعادت إلى الشاعر مكانته وتناشد الناس قصائده وسارت بها الركبان، فإذا أشعار عمر بن أبي ربيعة^(١)، والأخطل والغززدق وجريز وسواهم تحظى بسيرورة كبرى وتطير على ألسنة الناس غناءً وامتداحاً ومفاخرة وتغزلاً وهجاءً.

وكان من أسباب ازدهار الشعر في العصر الأموي قيام الأحزاب السياسية والتناحر الذي حصل بينهما مما أثار العصبية العربية وقد أدى هذا إلى فورة الشعر السياسي، وانتشار الغناء وحياة اللهو والترف من أسباب ازدهار الشعر أيضاً. وأدى الغناء إلى ازدهار شعر الغزل.

وخطا النثر خطوات واسعة نحو التقدم، بفضل القرآن والأحداث السياسية من جهة، وبفضل الدواوين وتطور الحياة العامة وتمازج

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أبو الخطاب أرق شعراء عصره (٢٣ - ٩٣ هـ) لم يكن في قريش أشعر منه نفاه عمر بن عبد العزيز إلى (دهلك) ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه فمات فيها غرقاً. له «ديوان شعر».

الشعوب من جهة أخرى.

هذا التقدم ظهرت ملامحه في الخطابة إذ بلغت في عهد بني أمية قمة ازدهارها وطبعت سائر الفنون بطابعها. حتى أن الشعر تحول قسم منه نحوها، فكان هنالك شعر خطابي يلقيه أصحابه بين أيدي الخلفاء والأمراء. ولعل المنازعات السياسية هي التي ساعدت أكثر من سواها على تقدم الخطابة وازدهار الشعر السياسي لكون اللسان كان أفعل من السيف وأمضى منه في الخصومة والصراع.

أما الفن النثري الذي عرف ازدهاراً في العهد الأموي، ففنّ الرسائل وذلك بعد أن أنشئ للرسائل ديوان خاص، واختير له الفصحاء والبلغاء وأصحاب الثقافة والذكاء والحنكة الإدارية، فقد أخذ كتّاب الرسائل يفتنون في تديبها، ويسعون إلى جعلها مؤثرة بحسن أسلوبها. وفي ديوان الرسائل خطٌ مستقبل النثر العربي الغني على يدي سالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب، وابن المقفع^(١)، الذي أدرك العباسي ومات في أيام المنصور...

وأما الفن القصصي فقد ازدهر بفعل الدين وحاجة الناس إلى تفسير القرآن والتبسط فيما أوجده من قصص. وكان المسجد مسرح

(١) هو عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ) من أئمة الكتاب وأول من عني بترجمة كتب المنطق في الإسلام أصله من الفرس ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) ترجم عن الفارسية كتاب «كليلة ودمنة» وهو من أشهر كتبه. اتهم بالزندقة قتلته في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلب. الأعلام ١٤٠/٤، أمراء البيان ٩٩ - ١٥٨، معجم المطبوعات ٢٤٩.

القصص الدينية ومقرّ الإخباريين والقصاصين والنسّابين، ولعل أشهر من عني بالقصص الدينية تميم الداري^(١). وإذا أضفنا إلى هذه الفنون ما رأيناه من حركة فكرية وعلوم، أمكننا الاستنتاج أن النهضة الأدبية والفكرية لم تنشأ في العصر العباسي كما يزعم كثير من الدارسين، بل الصحيح أن نشأتها واتجاهاتها، قد انطلقت من عصر بني أمية ثم اكتملت وتوسعت في أيام بني العباس حتى بلغت عهدها الذهبي.

وفي العصر الأموي نستدلّ على مدى تطور اللغة وعلومها واتساع مدلولها وكثرة ما استحدث فيها من مصطلحات، بمقتضى التطور الذي أصاب مجتمع الناس في سياسته وشؤونه الإدارية والمالية والفكرية ومعطياته الثقافية والعقلية، مما لا نقع عليه في معجم الألفاظ الجاهلية.

وكان لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم أثر في هذا التطور الذي أصاب لغتهم، كذلك كان له خطر على فصاحة اللسان العربي، وقد تدارك العرب هذا الخطر بالإسراع إلى وضع علم النحو. يقول جرجي زيدان: «أمّا استعجال العرب في تدوين النحو فإنه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين، لأن الفتوح دعت إلى الاختلاط بالأعاجم والاختلاط دعا إلى فساد اللغة»^(٢).

(١) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري أبو رقية (توفي نحو ٤٠ هـ). صحابي أسلم سنة (٩ هـ) سكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان. مات في فلسطين. انظر تهذيب ابن عساكر ٣/٣٤٤، صفة الصفوة ١/٣١٠، الأعلام ٨٧/٢.

(٢) راجع بهذا الصدد تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/٢٦١ وما بعدها.

مر بنا أن العصر الأموي كان عصر نهضة أدبية كبرى تجلّت في كل من الشعر والنثر والخطابة، وقد زاد في اتساعها عوامل كثيرة أهمها:

١ - سياسة الدولة الأموية، فقد كان لهذه السياسة أثر مباشر في الشعر السياسي والخطابة والتدوين، وفي المديح والثناء والهجاء والغزل.

٢ - صراع الأحزاب الذي أدّى إلى حرب كلامية شعراً وخطابة، وامتداداً وهجاء وإثارة وتحريضاً ودفاعاً ومجادلة.

٣ - امتداد رقعة الإمبراطورية فقد أدّى هذا إلى تمازج في الشعوب واختلاط الأجناس والعادات والتقاليد والأزياء واللغات. فكان لذلك أثره في الحياة الاجتماعية التي انعكست في الأدب، وأثره في الحياة الفكرية وفي اللغة التي فرضت على جميع الشعوب التي فتح العرب بلادها أن تتكلم بها، وأن تجعلها لغة العلم والأدب والدين والكتابة وغير خفي ما لذلك من انعكاس على الأدب.

٤ - تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الذي أسهم في تطوير الشعر الغزلي والوصفي، الوجداني، الخمري والمجون.

٥ - الحياة الدينية التي أثرت من وجهين: وجه الاهتمام ووجه الاستخفاف، فالاهتمام الجدي بالدين ساعد على اتساع الدراسات الدينية وتعمقها من تفسير القرآن إلى علم القراءات إلى الفقه إلى الجدل وعلم الكلام، إلى رواية الحديث

وتفسيره إلى القصص والوعظ والإرشاد والخطابة الدينية والمناظرات.

وأما الاستخفاف بشعائر الدين وأصوله فقد أدى بالتالي إلى تفشي المجون واللهو والعبث وشرب الخمر، وارتكاب الموبقات وطلب اللذائذ المحرّمة، والتغني بها على نحو ما نجد في شعر الوليد بن يزيد والفرزدق وابن الرقيات والغزل الحضري إجمالاً والعمرى بنوع خاص.

٦ - تطور الدولة وتنظيمها اللذان أدبا إلى إنشاء الدواوين وتعريبها وتطور فنّ الرسائل والكتابة الفنية إجمالاً، وضبط سجلات الدولة، وما إلى ذلك.

٧ - يقظة العصبية التي أذكت شعر السياسة القبلية والهجاء والنقائض.

٨ - عناية الخلفاء بالأدب واللغة، وعقدهم المجالس للتمر والتندر والشعر والتسلية. فقد كانت مجالس الخلفاء الأمويين تعجُّ برواة الشعر، والمحدثين، والنسّابين، واللغويين والشعراء والخطباء من أهل الفصاحة واللسن وزاد في ذلك أهمية كون الخلفاء أنفسهم من كبار الملمّين بالأدب واللغة ومحاسن الكلام، يحرصون كل الحرص على ألا تخلو مجالسهم من حوار ونقاش وتنافس، مما دفع بأرباب الكلام إلى تجويده والعناية به، وبالرواة إلى التنافس في كثرة المحفوظ وجودته، وحسن عرضه.

وكان عبد الملك بن مروان سيد تلك المجالس بلا منازع، فهو سياسي بارع، ورجل دولة من الطراز الأول وهو عالم بالدين

والشريعة والأحكام، شاعر أديب فصيح بليغ خطيب مفوّه، حافظ
للأشعار والأخبار والحديث والتاريخ، فمن أية جهة نظرت إليه
وجدته بارعاً متفوقاً.

وقد ساعد الهدوء النسبي في عهده واستقرار أمور الدولة على
ازدهار المجالس الأدبية فكان لذلك كله كبير الأثر في الأدب شعراً
ونثراً وخطابةً وكتابةً.

الفصل الثاني

مدخل نحو الشعر الأموي وخصائصه:

استعاد الشعر في زمن بني أمية مكانته العالية التي كانت له في الجاهلية، وأخذ الناس يلهجون بالشعراء ويروون شعرهم ويفاضلون بينهم وظل بيت الشعر في عهد الدولة الأموية يرفع قوماً ويخفض قوماً؛ وقد أدرك الخلفاء والولاة أهمية الشعر فقرَّبوا أصحابه، وأفاضوا عليهم جزيل الأعطيات.

وشعر الأمويين لا يختلف في شيء كثير عن شعر الجاهلية، وإنما هو امتداد له، مع كونه أكثر أهمية وخطورة. والسبب في ذلك يعود إلى أن الخلفاء الأمويين كانوا من العرب يعجبون بأساليب القدماء، وأن الذوق العام كان ما يزال عربياً ميثالاً إلى ما ألفه من الأساليب القديمة.

وهكذا ظلَّ الشعر جزل العبارة، قوي الأسلوب، فصيح التركيب

بعيداً عن اللحن، محافظاً على نظام القصيدة العربية التي تتناول عدة أغراض لا غرضاً واحداً وتلتزم وزناً واحداً وقافية واحدة باستثناء الغزل الذي عرف وحدة القصيدة وتطور أكثر من سواء معنى ومبنى ورقّت ألفاظه، وطغت عليه الرشاقة في الأوزان وأسلوب الحكاية والقصص.

وفي حقل المعاني لم يتطور الشعر الأموي كثيراً، رغم ما أشاعه الإسلام في تفكير الناس وأخلاقهم، لأن الفترة الزمنية لم تكن كافية لتطوير العقلية العربية من حيث الشعر والألفاظ وتعميق الثقافة، وتوسيع أفقها.

ولا يحدث تطور في المعاني ذو قيمة إلا إذا تطورت الحياة العقلية، التي تحتاج في خطواتها هذه إلى مدة أطول مما امتد العصر الأموي. وقد حدث هذا التطور في العصر العباسي الأول، واستمر. لكننا مع ذلك نشاهد في شعر الأمويين اتجاهاً نحو هذا التطور، ولا سيما في أواخر العهد الأموي إلا أنه بقي محدوداً لكون الشعراء والبيئة وسائر العوامل أقرب إلى البداوة منها إلى الحضورية.

في هذا المجال نقع على تطور وعلى تغير في الخصائص، ولعل أبرز مظاهر التجديد في الشعر الأموي تتجلى في ازدهار بعض الفنون، والإكثار من النظم فيها كالشعر السياسي والغزلي وشعر المديح والفخر والهجاء؛ وفي ضعف فنون أخرى والإقلال من الاحتفال بها كالوصف والثناء والحكمة.

والواقع أن العصر الأموي كان عصر الازدهار الشعري للعديد من الأسباب نذكر منها:

- قيام الأحزاب وحاجة كل منها إلى الشعر، لإثارة العواطف وتحريك المشاعر ونشر المبادئ والعقائد التي تدين بها الأحزاب.

وكان الحزب الأموي أكثر الأحزاب حاجة إلى الشعر ورغبة في استهواء الشعراء وكان من لوازم سياسته ما أورده جرجي زيدان بقوله: «تألف الشعراء بالمال فضلاً عن اضطرار الشعراء وغيرهم إلى استرضائهم خوفاً من قطع العطاء عنهم»^(١) وكان معاوية صاحب هذه السياسية: «فقد جعل تصرفه في العطاء وسيلة لاكتساب قلوب المسلمين حتى أشيع العلويين وغيرهم من أبناء الصحابة الذين كان يخاف قيامهم للمطالبة بالملك»^(٢).

- ومن هذه الأسباب عودة العصبية القبلية، وكانت عودتها من نتائج السياسة الأموية منذ عهد الخلافة الأول بين علي ومعاوية. وقد تفاقم شأن هذه العصبية حين انقسم البيت الأموي إلى فرعين: مرواني وسفياني. كل هذا اقتضى الشعر وأدى إلى نفوذ الشعراء في الأحياء وعند سائر الزعماء من خلفاء وأمراء وولاة.

- وقد كان بنو أمية من ذوي الحفاظ على تراث العرب الأدبي وفي مقدمته الشعر. وقد كان أكثرهم مشهوراً بحفظ أشعار العرب والعناية بالنظم. وكان معاوية يقول: «اجعلوا الشعر أكبر

(١) انظر كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/ ٢٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق ١/ ٢٦٣.

همكم وأكثر دأبكم»^(١). وفي الأغاني: «أن عبد الملك راسل عبد الله بن الزبير شعراً، وردَّ عليه الأخير بمثل ذلك»^(٢). ولم يقتصر بنو أمية على رعاية الشعراء فقد أحيوا مجالس الشعر، وأخبار الكتب الأدبية تدل على امتلاكهم ملكة النقد. وقد بلغ من شغف الخلفاء الأمويين بالشعر أن استقدموا الشعراء من الأمصار، وكانوا يبعثون إلى عمالهم باستعجالهم إليهم.

- وقد كان لنهضة فن الغناء في الحجاز على يد الرقيق والموالي أمثال معبد وسائب خاثر^(٣)، وابن مسجح^(٤)، وابن سريج وجميعة^(٥) وعزة الميلاء^(٦) وحبابة وسلامة، ما أدخله هؤلاء

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/٢٧٧.

(٢) انظر الأغاني ١١/١٢١.

(٣) هو سائب بن يسار الليثي بالولاء أبو جعفر أحد أئمة الغناء والتلحين في العرب كان حسن الصوت، وهو أستاذ معبد المغني وابن سريج وعزة الميلاء وآخرين وقيل في سبب تسميته «سائب خاثر»: أنه غنى صوتاً ثقيلاً فقال من سمعه: «هذا غناء خاثر». أي غير محذوق فلهصق به لقباً. قتل في الحرة (سنة ٦٣ هـ). الأعلام ٣/٦٨ ونكت الهميان ١٥٣.

(٤) هو سعيد بن مسجح أبو عثمان أو أبو عيسى ملحن من كبار المغنين كان أسود من أهل مكة، جعل لنفسه مذهباً في التلحين تبعه فيه الناس من بعد، توفي سنة (٨٥ هـ) وكان من تلاميذه ابن سريج، والغريص. الأغاني ٣/٢٧٦ الأعلام ٣/١٠١.

(٥) هي جميعة السُّلمية موسيقية ملحنة كانت من أعلم المغنين والمغنيات في العرب، في صناعة الغناء، وضعت الحاناً تهافت الناس على سماعها، كانت نابغة الغناء والتلحين في عصرها توفيت سنة (١٢٥ هـ) الأغاني ٧/١١٨، الأعلام ٢/١٣٩.

(٦) هي عزة الميلاء أقدم من غنى غناءً موقعاً في الحجاز، إقامتها بالمدينة وهي =

من ألحان الروم والفرس، نتيجة ما أصاب أهل الحجاز من الغنى والثروة، وما نجم عن ذلك من ميل إلى حياة الدعة واللهم. وتناول الشعر الغنائي وخاصة ما لامس منه العواطف ومعاني الغزل.

- ومن دواعي هذه النهضة العارمة في الشعر الأموي اهتمام الرواة والنقاد به فأقبل الشعراء على قرائحهم يشحذونها ليكسبوا شعرهم الرواج فاشتدت روح المنافسة بينهم. وقد لعبت سوق المربد في البصرة والكناسة في الكوفة دوراً مهماً في هذه المنافسة وأذكت وطيس التسابق بينهم.

وفي نظر النقاد^(١) قد مرّ الشعر الأموي بثلاثة أدوار:

الأول: أقرب إلى روح البداوة وأكثره في الفصل بين خصومة العلويين والأمويين وشعراء هذا الدور جلّهم من خصوم بني أمية ومنهم من جاهر بخصومتهم فعلاً كالنعمان بن بشير^(٢) وابن مفرغ

= مولاة للأنصار، لقبت بالميلاء لتمايلها في مشيتها، قال طويس: هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع وخلق كريم وإسلام لا يشوبه دنس، تأمر بالخير وهي من أهلها، وتنتهي عن السوء وهي مجانية له. توفيت نحو (١١٥ هـ). انظر الأغاني ١/٣٧٨، أعلام النساء ٢/١٠١٣، الأعلام ٢٣٠/٤.

(١) انظر كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/٢٧٧.

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد أبو عبد الله (٢ - ٦٥ هـ) أمير خطيب شاعر من أجلاء الصحابة من أهل المدينة له (١٢٤ حديثاً) ولي القضاء بدمشق وولي اليمن لمعاوية ثم استعمله على الكوفة تسعة أشهر، قتله خالد بن خلي الكلاعي وهو فارا من حمص، له ديوان شعر وهو الذي تنسب إليه معرفة النعمان، جمهرة الأنساب ٣٤٥، أسد الغابة ٢٢/٥، معجم المطبوعات =

الحميري وأبو الأسود الدؤلي.

الثاني: وهو أشهر أطوار الشعر الأموي، ويسمى طور الفحول في عهد عبد الملك وخلفائه من بني مروان وفي مقدمة هؤلاء الفحول: الأخطل وجريير والفرزدق والراعي النميري^(١) وأبو النجم الأحوص^(٢) والثلاثة الأول أكثرهم سيرورة شعر وتنوع أغراض وقد غلبت السياسة على أدب هذه الفترة ودارت الفنون العديدة من مثل المديح والهجاء والغزل في الفلك السياسي.

الثالث: قلَّ عدد الشعراء، وغلب على الشعر طابع الخلاعة والمجون وتعليل هذه الظاهرة اتساع الدولة الأموية وتزايد أسباب الرخاء وفتور حدة الصراع القبلي، والهجاء السياسي.

أغراض الشعر الأموي:

خاض الشعراء الأمويون في الأغراض القديمة من فخر وحماسة

= ١٨٦١، الأعلام ٣٦/٨.

(١) هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري. أبو جندل شاعر من فحول المحدثين لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، وقيل كان راعي إبل من أهل بادية البصرة عاصر جرييرا والفرزدق، كان يفضل الفرزدق وهو من أصحاب الملحمة سقاه بعض الرواة حصين بن معاوية. توفي سنة (٩٠ هـ)، انظر الأغاني ١٦٨/٢٠، جمهرة أشعار العرب (١٧٢)، الشعر والشعراء ١٥٦. الأعلام ١٨٨/٤.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عاصم الأنصاري من بني ضبيعة شاعر هجاء صافي الديباجة، من سكان المدينة، نفي إلى (دهلك) توفي في دمشق سنة (١٠٥ هـ). وكان حماد الراوية يقدمه في النسب على شعراء زمانه ولقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه. له ديوان شعر وإخباره كثيرة. الأغاني ٤٠/٤، الشعر والشعراء ١٢٤، الأعلام ١١٦/٤.

ووصف ورناء ومديح وهجاء ولكنها أصابت على أيديهم، وخاصة عند الفحول منهم كثيراً من معالم التجديد والتحول.

وبفعل التحضر والسياسة وعوامل الثقافات ظهرت ألواناً تحمل آفاقاً أوسع من آفاق الشعر الجاهلي: فمن الأغراض القديمة التي اتسعت مجاريها المديح والهجاء، ومن أعلامها الفحول الثلاثة، وقسم الشعر الشامخة في هذا العصر: الأخطل والفرزدق وجريير وقد تمخض الهجاء عند هؤلاء عن فن جديد هو فن النقائص.

أما عن الأغراض الجديدة فظهر الشعر السياسي: وأبرز أعلامه الأخطل، والكميت بن زيد الأسدي موضوع دراستنا، وعبيد الله بن قيس الرقيات، وعمران بن حطان، والطرماح بن حكيم. الغزل العذري: وهو صورة لحياة المحبين في بيئة البداوة الإسلامية وأشهر زعمائه: جميل بن معمر^(١) وقيس المجنون^(٢). الغزل الحضري:

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي أبو عمرو شاعر من عشاق العرب افتتن ببثينة من فتيات قومه، وفي شعره من صدق وبساطة التعبير ما حبه إلى المغنين، توفي في مصر سنة (٨٢ هـ) نحو (٧٠١ ر) الأغاني ٩٠/٨، الشعر والشعراء ١٦٦، الأعلام ١٣٨/٢.

(٢) هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري شاعر غزل من أهل نجد يعرف بمجنون ليلى نسبة إلى ليلى العامرية التي كان يعشقها ورفض أهلها أن يزوجوها به فهام على وجهه ينشد الأشعار إلى أن مات سنة (٦٨ هـ) نحو (٦٨٨ ر). اشتهر بحبه العذري جمع شعره في ديوان. فوات الوفيات ١٣٦/٢، الأغاني ١/٢، الشعر والشعراء ٢٢٠، الأعلام ٢٠٨/٥.

وهو مرآة لحواضر الحجاز المترفة وشبابه اللامي، وشعراؤه عمر بن أبي ربيعة، والعرجي^(١) والأحوص. ومن هذه الألوان الجديدة الزهد والمجون ووصف الطبيعة والأراجيز^(٢) وعلى هذا النحو يمكن أن نقسّم الشعراء في العصر الأموي إلى طوائف حسب الألوان التي برعوا فيها والتي اشتهروا بها. فهناك شعراء الغزل والطبيعة والمجون والزهد والسياسة. وتتميز أساليبهم واتجاهاتهم الفنية حسب أصالتهم في البداوة أو نشأتهم في المدن أو كونهم من الموالي لكنهم جميعاً ساعدوا على تحويل أغراض القصيدة العربية ومعانيها وبفضلهم أصبح الشعر الأموي يتميز بخصائص وأساليب ستقف عليها بعد عرض الشعر السياسي.

(١) هو عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان الأموي القرشي أبو عمر شاعر غزل مطبوع ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة كان مشغولاً باللهو والصيد وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء وهو من أهل مكة لقّب بالعرجي لسكنائه قرية «العرج» قرب الطائف توفي في السجن سنة (١٢٠ هـ) وهو صاحب البيت المشهور:

أضاعونني وإي فتى أضاعوا
ليوم كـريهة وسداد ثغر

له: ديوان شعر: الأغاني ٢٨٣/١، الشعر والشعراء ٢٢٤، الأعلام ١٠٩/٤.

(٢) الأراجيز جمع أرجوزة قصيدة على وزن الرجز تعتمد أصحابها الغريب والغير مألوف من الألفاظ إرضاء لعلماء اللغة وتعتبر هذه الأراجيز من باب الشعر التعليمي أو اللغوي. وقد اشتهر بها على التوالي: أبو الأسود الدؤلي، والوليد بن يزيد، وذو الرمة، ورؤبة بن المعجاج والمعجاج والعجلي.

الشعر السياسي ومجمل خصائصه:

الشعر السياسي هو أكثر أنواع الشعر رواجاً في عصر بني أمية اقتضته أحوال السياسة العامة، من صراع بين الأحزاب، إلى وراثة في الحكم، إلى نظريات سياسية جديدة، إلى عصبيات قبلية قيسية ويمينية، إلى صراع عرقي بين الموالي والعرب.

والسياسة لغة كما جاء في القاموس المحيط: «ست الرعية سياسة، أمرتها ونهيتها»^(١). فالسياسة لغة هي الأمر والنهي، وهي صفة من صفات الرئاسة كما يتضح مدلول اللفظة. وقد جمع الباحثون في اللغة بين السياسة والتدبير، وقد جاء في نهاية الأرب: «إذا صَحَّت السياسة تَمَّت الرياسة»^(٢). والسياسة اصطلاحاً بالاستناد إلى المدلول اللغوي يتضح أن السياسة شرط في كل من انتدب للرئاسة وهي عبارة عن امتلاك شؤون الناس والتصرف فيها بالأمر والنهي، لتدبير أحوال الرعية، لذا عني بها المحدثون في فن التدبير وطريقة الحكم^(٣).

ومجمل القول بأن المتبوع لأطوار المجتمع الإنساني خلال العصور، من البداوة إلى العمران، ومن حياة الأسرة والجماعة، إلى نظام القبيلة والدولة، يلمس ارتفاع القافلة البشرية في وسائل العيش، وأنظمة الإدارة، وأصول المعاملة على أساس تقدم عوامل التدبير أو

(١) انظر القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/ ٢٣٠. دار الكتب العلمية.

(٢) انظر تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب صفحة ٧٣.

(٣) انظر المرجع السابق صفحة ١٨.

السياسة. ومفهوم السياسة خلال هذه الأحقاب، كان ولا يزال مرتبطاً بمعناه اللغوي الأول، ومن البديهي أن تتشعب وسائل التدبير، وتتعدّد طرقه وتتعدّد مراميّه بمقتضى مستلزمات الحياة ونواميسها. وإذا نحن أمعنا النظر في تراث الإنسانية العقلي ومستنبطاتها الفكرية، في مختلف حقول المعرفة وسائر النواحي النظرية والعملية وجدناها متأثرة دائماً بهذا التحول الحثيث للمفهوم السياسي المشار إليه، إنها صدى تجارب الأمم الإنسانية مع متطلبات الوجود الإنساني لحفظ النوع، والعمل من أجل البقاء^(١).

دور الأدب في السياسة:

لقد كان للفنون والآداب القسط الكبير، والمساهمة الفعّالة في إذكاء الصراع بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين محيطه وبيئته، منذ فجر التاريخ، ولئن باتت الحياة السياسية اليوم عند الأمم والشعوب ذات قوانين وشرائع ودساتير، ولئن أصبحت السياسة علماً واختصاصاً ومسلكاً واتجاهاً، فلا تزال الآداب تقوم بنصيبها من الأعباء في هذا الميدان الخطير، دون أن تنازل عن مهمتها في توجيه ضمير الإنسانية، واستشارته ودفعه إلى كل نوع من أنواع الكفاح والنضال.

ماهية الشعر السياسي:

تبين مما تقدم أن الغرض من السياسة في كل أطوارها التحكم في

(١) انظر كتاب مواقف في الأدب الأموي د. عمر فاروق الطباع صفحة ٤١ وما بعدها. طبعة دار القلم بيروت ١٩٩١.

علاقة الناس ببعضهم، في نطاق البيئة الاجتماعية من ناحية وتجاوز ذلك إلى التصرف في علاقة هذه البيئة بالبيئات الأخرى، انطلاقاً من حياة الأسرة فالدولة والعمل على مراعاة أحوال التطور وفق الظروف الزمانية والمكانية وعلى هذا النحو يكون الشعر السياسي، هو هذا اللون من الشعر الذي يواكب وقائع المجتمع من زاوية هذه الروابط بين أفراد الجماعة وبين الجماعة وسواها من المجتمعات، هادفاً من ذلك في الأصل إلى ترسيخ مكانة الفئة التي ينتمي إليها الشاعر السياسي.

ولكن كيف نفسّر هذا الارتباط بين الشعر والسياسة، ولكل منهما ماهية خاصة؟ وعلى أي أساس خاض الشعراء في المجالات السياسية؟ وبأي أسلوب شاركوا في تدبير شؤون مجتمعهم؟ قد يكون ارتباط الشعر بالسياسة من الظواهر المخالفة لطبائع الأشياء للفروق الأساسية بينهما في الطبيعة والموضوع والغاية. فالشعر فن جميل - والسياسة علم - أو على الأقل كانت ولا تزال تفرض في الذين يمارسونها خبرة خاصة، وإماماً بما يمس حياة الجماعة في تاريخها وعاداتها الغالبة وتقاليد الراسخة، وميول الأفراد وأخلاقهم فيها.

وما دام الشعر فناً متصلاً بالوجدان وموضوعه الإحساس والشعور ومجمل عواطف النفس البشرية، وغايته الإثارة والإيحاء، والارتفاع بالذات عن الواقع ورتابته بقيمه التعبيرية والجمالية.

أما السياسة لنصيبها من العلم فمتصلة بالفكر وموضوعها الحقائق، وتأمل الواقع، وغايتها دراسة أوضاع الحياة ومشكلاتها

لإيجاد الحلول الملائمة لها. فكيف يعنى الشعراء بما ليس من اختصاصهم؟

هناك إمكانية لتعليل العلاقة بين الشعر والسياسة وبين مهمة الشاعر والسياسي. فالسياسة في الأصل، لم تكن علماً له أصوله الثابتة بقدر ما كانت تجربة يعول فيها على سداد الرأي وسعة الحيلة ورجاحة المنطق. ولما كان الشاعر في المجتمعات الإنسانية الأولى ومنها المجتمع القبلي متميزاً بنباهة الفكر والقدرة على البيان كان بوسعه بدوافع غيرته على الجماعة التي ينتمي إليها وتعبه لها، أن يدرك حاجات قومه ويدافع عن مصالحها، متأثراً بالظروف ومؤثراً فيها.

على هذا الأساس ظهر الشعر السياسي في البيئات القديمة ومنها البيئة العربية وخاض الشعراء في مشاكل مجتمعهم بأسلوبهم وطريقتهم. فما هو هذا الأسلوب؟

لقد تصدّى الشعر للمفاهيم السياسية بما لا يتنافى مع طبيعته وعناصره الفنية. فالشاعر لا يتعرض للاعتبارات السياسية من زاوية العلم ولا يعرضها بأسلوب العالم ومنطقه، وإنما يضيف عليها من فنه ليجعلها جزءاً من القوة الروحية في المجتمع ويكسبها من حرارة قلبه وأعماقه لتتفاعل بها النفوس وتستجيب لمؤثراتها. فأسلوب الشعر السياسي إذاً هو الأسلوب الوجداني الباعث على التأمل، المحرّك للعواطف، وهو لا يخاطب العقل بالقياس والمنطق، وليست غايته الإقناع بالجدل والبرهان، بل يسلك إلى ذلك سبيل التأثير الشعوري ويمتلك النفوس بالأخيلة البيانية، والصور البليغة، فيلجأ إلى التضخيم والمبالغة ويختار العبارة الدالة، مكثفاً بالإشارة والتلميح

دون الإحاطة والاستقصاء^(١).

لقد اتسم الشعر السياسي عند العرب منذ الجاهلية حتى اليوم بسمات مختلفة اقتضتها الأحداث الكبرى التي شغلت الناس في كل مرحلة من مراحلها: فهو يتعلق بالسياسة القبلية في الجاهلية، والسياسة الدينية في بدء الإسلام والسياسة الحزبية في العصر الأموي، وبالنزاع العنصري في العصر العباسي. ولقد تشعبت أغراضه في أدب النهضة الحديثة فتولى الدفاع عن الحقوق القومية والأهداف الوطنية، والعدالة الاجتماعية.

نشأة الشعر السياسي عند العرب:

لم تعرف الحياة القبلية نظاماً في الحكم له قانونه، سوى النظام القبلي القائم على العرف وهو ما تجمّع عندهم من خبرة في الحياة، وما نزل من عاداتهم وتقاليدهم منزلة الشرائع.

وفي إطار هذا النظام، كانت سياسة القبيلة الداخلية والخارجية منوطة برئيس فيه الحكمة والجرأة، وذوي الرأي من عقلاء القبيلة وشيوخها. وقد كان لشعراء القبائل، إلى جانب خطبائها أثر ملحوظ في سياستها. وقد ذهب كثير من الباحثين إلى القول بأن الشعراء كانوا أهل المعرفة في الجاهلية لما تميزوا به من إلمام بأخبار العرب وأنسابهم وإحاطتهم بالمناقب والمثالب وقدرتهم على التوجيه في الحرب والسلم.

(١) نفس المرجع السابق صفحة ٤٣ وما بعدها.

وقد كانت قصائد الشعراء في العصر الأموي تحدث فعلها في نفوس القوم، وتؤثر في عواطفهم وأفكارهم تأثير الصحف والمجلات والإذاعات في وقتنا الحاضر. ولهذا السبب بالذات كان للشعر مكانة مرموقة عند العرب، وكان للشاعر أهمية بالغة في قبيلته. وقد نقلت إلينا كتب الأقدمين مختلف الأخبار ومتعدد الروايات عن طرق الاحتفال بالشعر، والابتهاج بنبوغ الشعراء، كما حفظت لنا الوقائع الكثيرة التي تشهد لهؤلاء بالتأثير في بيئتهم إذ كانوا قادرين على أن يرفعوا بشاعريتهم منزلة الخامل حتى يشتهر ويضعوا من مرتبة القوي حتى يضعف.

لم تعرف البيئة الجاهلية للعرب حروباً طويلة كحرب «البسوس»^(١) التي احتدمت طويلاً بين تغلب وبكر منذ مقتل كليب، وحرب «داحس والغبراء»^(٢) التي قامت بين عبس وذبيان في أعقاب

(١) حرب جرت بين تغلب وبكر ابني وائل دامت أربعين سنة، قيل إنه كان للبسوس وهي خالة جساس ناقة فراها كليب بن ربيعة قد كسرت بيض حمام في حماه فقتلها. فظل جساس يترقب الفرص حتى اغتال كليياً. فثار تغلب بقيادة المهلهل لدم كليب ونشبت الحرب وجساس شقيق جليلة زوجة كليب، فلحق جليلة يقومها وأبيها بعد مقتل كليب وكانت حاملاً فولدت الهجرس فرباه خاله جساس، ولما شب واكتشف نسبه لأبيه كليب قتل جساساً ولحق بفومه تغلب. ثم اعتزل المهلهل الحرب، وقال لقومه: «قد رأيت أن تبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم وقد أتت على حربكم أربعون سنة وفني الحيان». وهاجر إلى اليمن ثم عاد بعد زمن. وتوفي بين أهله وعشيرته. ولهذه الحرب أيام مشهورة من أيام العرب: أشهرها الذنائب، عنيزة، واردات، قضة، القصبيات، التحالق. نهاية الأرب ٤٠٥.

(٢) حرب السباق. وقعت بين عبس وذبيان لخلاف على سباق الخيل بين فرسين-

السباق المشهور وقد أثرت هذه الحروب في شعر عمرو بن كلثوم^(١)، والحرث بن حلزة^(٢) وعترة^(٣) والنابعة^(٤) وتعتبر الأيام التي تضم وقائع الخصومة والمنافرة بين أحياء العرب من بواعث الشعر السياسي الهامة في الجاهلية.

= وعرفت باسميهما: داحس والغبراء. استمرت أربعين سنة ذكرها زهير بن أبي سلمى في معلقته، أشهر أيامها: المريقب وبطله عترة بن شداد، وذئب حساء، واليعمرية، والهباءة، وفروق، وقطن. نهاية الأرب ٤٠٥.

(١) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب من بني تغلب أبو الأسود شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة، عمّر طويلاً وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:
«ألا هبي بصحنك فاصبحينا»

مات في الجزيرة الفراتية سنة ٤٠ قبل الهجرة - الأغاني ٥٢/١١، الشعر والشعراء ٦٦، الأعلام ٨٤/٥.

(٢) هو الحرث بن حلزة من بني يشكر وكان أبرص. انظر الشعر والشعراء ٠/٢٩.

(٣) هو عترة بن شداد بن عمرو بن قراض العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى أمه حبشية اسمها زبيبة. سرى إليه السواد منها وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة. كان مغزماً بابتنة عمه «عبله» قتله الأسد الرهيص أو جبارين عمرو الطائي سنة ٢٢ قبل الهجرة. ينسب إليه ديوان شعر: الأغاني ٢٣٧/٨، الشعر والشعراء ٧٥، الأعلام ٩١/٥.

(٤) هو زياد بن معاوية أبو أمانة شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء وتعرضي عليه أشعارها. شعره كثير جمع بعضه في ديوان صغير. عاش عمراً طويلاً توفي سنة (١٨ قبل الهجرة)، الشعر والشعراء ٣٨، الأعلام ٥٤/٣.

ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الصراع القبلي النابغة الذبياني
فقد ردّ على خصوم بني ذبيان، وتراه يشيد بأحلاف قومه من بني أسد
ويهدّد من يبغى الإساءة إليهم، ذاكراً أيام ظفرهم ومواطن فخرهم
كقوله في الردّ على زرعة بن عمرو:

إذا حاولت في أسد فجوراً
فلأنني لست منك ولست مني
فهم درعي التي استلامت فيها
إلى يوم النصار وهم مجنّي
وهم وردوا الجفار على تميم
وهم أصحاب يوم عكاظ أني^(١)
شهدت لهم مواطن صادقات
أتيمم بـوّد الصدر مني

ويتبع النابغة أمجاد بني أسد، فيصف شدة بأسهم، ذاكراً قتلهم
لحجر والد امرئ القيس، وزحفهم على بني غسان، ممتدحاً أبطالهم
المجترّين في الوغى، مشبهاً إياهم فوق الخيول الضامرة بالليوث
الضارية، أو الجن:
وهم ساروا للحجر في خميس
وكانوا يوم ذلك عند ظني^(٢)

(١) الجفار: ماء لبني تميم عنده كانت وقعة بين تميم وبكر - يوم عكاظ - وقعة
بين قريش وهوازن.

(٢) حجر: والد امرئ القيس وهو من ملوك كندة. الخميس: الجيش.

وهم زحفوا لغسان بزحف
 رحيب السرب أرعن مرجحن^(١)
 بكل مجرب كالليث يسمو...
 على أوصال ذيال رفن^(٢)
 وضمير كالفداح مسومات
 عليها معشر أشباه الجن^(٣)

وفي هذه القصيدة يخطيء النابغة عينة في ما ذهب إليه ويصفه
 بالحمق وتقلب الأهواء:

كانك من جمال بني أقيش
 يقفخ خلف رجليه بشن^(٤)
 تكون نعامة طوراً، وطوراً
 هوّي الريح تنسج كل فن^(٥)
 ولو أنني أطعك في أمور
 قرعت ندامة من ذاك سني

-
- (١) رحيب السرب: واسع الصدر. مرجحن: ثقيل.
 (٢) ذيال: صفة للفرس الطويل الذيل. الرفن: بالمعنى السابق.
 (٣) الضمر: صفة للخيل الضامرة. الفداح: جمع قدح، سهم العيسر. مسومات: لها علامة.
 (٤) الشن: القرية البالية، أو الشيء اليابس.
 (٥) شبهه بالنعامة لحمقه، وبالريح لتقلب أهوائه.

وهذه صورة من شعر النابغة في السياسة القبلية تظهر من خلالها خصائص هذا الفن وطبيعة أسلوبه.

فالشاعر في مخاطبته لعينة الفزاريّ الذي دعا ذبيان إلى نقض حلفها مع بني أسد، يرعى مصالح قومه، ويرى الإبقاء على صداقة بني أسد ضرورة من ضروريات عزّتهم فيلجأ إلى تهديد الخصم، وتدفعه نظرته النافذة في الأمور إلى مديح الأحلاف بما يتفق والمهام التي يتدبهم إليها، من نصرة ذبيان وخوض المعركة إلى جانبهم ويمعن في تجريح رأي الدخيل، والاستخفاف به، فإذا بالشعر السياسي إطار لعدد من الأغراض الشعرية. أما الأسلوب الذي اتّبعه النابغة في هذا الشعر، فهو أسلوب الإثارة يتجلّى تارة في الوعيد وأخرى في الحماس وطوراً في الهجاء في كلّ هذه اللهجات على الجذّ الحازم والحمية والاندفاع وقوة الشخصية.

ويقول الدكتور عمر فاروق الطباع: «وإذا استقصينا هذه النزعة عند البارزين من شعراء هذا العصر، لمسنا دائماً اتجاه الشاعر القبلي، لينصر فريقاً على فريق تعظيماً وتحقيراً، وذماً وإطراءً، بأساليب متباينة تتفق مع المواقف وتتلاءم مع مكوّنات هذه الشخصيات الشاعرة كما هي الحال عند الحارث بن حلزة، وعمر بن كلثوم في بلاط عمرو بن هند».

ومجمل القول فقد كان الشاعر الجاهلي يحاول أن يوفر في شعره كثيراً من القيم الصوتية والتصويرية فتجد أن

زهيراً^(١) يعنى بنماذجه عناية شديدة وهو يوزع هذه العناية في كل جانب، ولذلك كان يحقق لنماذجه وصوره كل ما يمكن من مهارة وبراعة لا تقف عند هذه الجوانب بل تتعداها إلى جانب آخر مهم، وهو جانب الإغراب في التصوير على نحو ما نراه يصور الحرب في معلقته هذا التصوير الرائع:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضرتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثقالها
وتلقح كشافاً ثم تتج فتثم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم

(١) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني من مضر حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضل على الشعراء كافة. ولد في بلاد أمزينة بنواحي المدينة. وكان يقيم في الحاجر من ديار نجد. وكانت قصائده تسمى الحوليات. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:
«أمن أم أوفى دمنة لم تكلم».

له ديوان ترجم كثير منه إلى الألمانية. توفي سنة (١٣ قبل الهجرة)، الأغاني ٢٨٨/١٠، الشعر والشعراء ٤٤، الأعلام ٥٢/٣.

فإن الصور تزدهم في تلك الأبيات وليس هذا ما يلفتنا بل الصور
الغريبة التي صور فيها الحرب تطول بل هي تغلّ لهم غلّة ليست كغلّة
أهل العراق ففيها الموت والهلاك، ولا شك أنه تعب قبل أن يصل
إلى هاتين الصورتين في وصف الحرب ويقول في تصوير آخر وأكثر
تعقيداً إذ يقول في حروب القبائل التي لا تخمد نارها:

رعوا مارعوا من ظمئهم ثم أوردوا
غماراً تسيل بالرماح وبالدم
ففضّوا منايابهم ثم أصدروا
إلى كل متويل متوخم

فقد عبّر عن سلمهم وحربهم وما يبلون منها بتلك الصور من
الإبل التي ترعى مراعي وبيلة، فإذا أرادت أن تشرب لم تجد إلا تلك
المياه التي تسيل بالرماح وبالدم.

أما في صدر الإسلام فقد كان للنبي موقف صريح من الشعر...
يحاربه ما دام وسيلة للتنافر وتحكيم العصبية، ويعجب بما فيه أحياناً
من الحكمة والبيان والبلاغة، وحين سمع بيت طرفة بن العبد^(١):

(١) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو نحو
(٨٦ - ٦٠ قبل الهجرة) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد في بادية
البحرين، قتله المعكير شاباً في «هجر» قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل: ابن
ست وعشرين. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:
«الخلوة أطلال يبرقة نهد».

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قال: «هذا من كلام النبوة، إن من البيان لسحراً». كذلك كان يرغب الشعر إذا جاء دفاعاً عن مبدأ عادل أو ذوداً عن حق، وأصدق كلمة قالها شاعر في نظره قول لبيد^(١):
«ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

ولما أثارت قریش شعراءها في هجاء الرسول وصحبه، والتهجم على العقيدة الجديدة أهاب النبي بشعراء الإسلام للرد عليهم، لعلمه بما للشعر من تأثير في نفوس العرب، وقد قال للأنصار يومذاك: «ما

= وجمع المحفوظ من شعره في ديوان صغير ترجم إلى الفرنسية كان هجاء غير فاحش القول. الشعر والشعراء ٤٩، الأعلام ٣/ ٢٢٥.

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري. أحد الشعراء الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ. ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم وترك الشعر ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً قيل هو:
ما عاتب المرء الكريم كنفه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

سكن الكوفة وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات ومطلعها:
عفت الديار محلها فمقامها
بمنى، تأبى غولها فرجامها

جمع بعض شعره في ديوان صغير ترجم إلى الألمانية توفي سنة (٤١ هـ).
انظر الشعر والشعراء ٢٣١، الأعلام ٥/ ٢٤٠.

يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه
بألسنتهم»^(١). فانبرى حسان بن ثابت^(٢) وكعب بن مالك^(٣)،
وعبد الله بن رواحة^(٤) يصفهون شعراء قريش أمثال
عبد الله بن الزبيري^(٥)، وأبي سفيان^(٦) وعمرو بن

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٦/٣. وما بعدها.

(٢) هو حسان بن ثابت الأنصاري أبو الوليد الصحابي شاعر النبي ﷺ. وأحد
المخضرمين - أدرك الجاهلية والإسلام - وكان من سكان المدينة اشتهرت
مدائحه في الغنائين وملوك الحيرة قبل الإسلام (عمي قبيل وفاته) كان شديد
الهجاء توفي سنة (٥٤ هـ). الأغاني ١٣٤/٤، الشعر والشعراء ١٠٤،
الأعلام ١٧٥/٢.

(٣) هو كعب بن مالك الأنصاري السلمي صحابي من أكابر الشعراء من أهل
المدينة اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر
الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان وأنجده يوم الثورة. عمي في آخر عمره.
توفي سنة (٥٠ هـ) له ٨٠ حديثاً و«ديوان شعر»، الأغاني ٢٩/١٥، الأعلام
٢٢٨/٥.

(٤) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري أبو محمد صحابي يعد من الأمراء
والشعراء الراجزين. كان يكتب في الجاهلية. وشهد العقبة مع السبعين من
الأنصار وكان أحد النقباء الاثني عشر وشهد بدرأً وأحد والخندق والحديبية
توفي في البلقاء من أرض الشام في موقعة مؤتة سنة (٨ هـ). انظر حلية
الأولياء ١١٨/١، والأعلام ٨٦/٤.

(٥) هو عبد الله بن الزبيري بن قيس السهمي القرشي. أبو سعد شاعر قريش في
الجاهلية. كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة. فهرب إلى نجران.
فقال فيه «حسان» أبياتاً. فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح
النبي ﷺ فأمر له بحلة. توفي نحو (١٥ هـ). انظر الأغاني ١٤/٤/١،
طبقات الشعراء ابن سلام ٥٧ - وما بعدها، والأعلام ٨٧/٤.

(٦) هو صخر بن حرب بن أمية. صحابي من سادات قريش في الجاهلية. وهو
والد معاوية رأس الدولة الأموية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام =

العاص^(١) ويهجونهم مفندين أباطيلهم حاملين على مزاعمهم.

ولقد تميز الشعر السياسي في صدر الإسلام بمدح النبي ﷺ، والذود عن عقيدة الإسلام وهجاء أعداء الدعوة الإسلامية، وتبيان ما في الوثنية من الزيف والضلal. وقد عني شعراء تلك الفترة بتأريخ غزوات النبي كغزوة بدر، وأحد، والافتخار ببطولة المؤمنين، والتغني بالظفر على قريش، ورتاء الصرعى من الشهداء. ولم يخل هذا الشعر من الحكمة المتأثرة بالثقافة الدينية المتضمنة بعض المعاني القرآنية. ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة يهجو قريشاً ويعتز بالإسلام:

نجالد الناس عن عرفنا سرهم
فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأننا ليس غالبنا
حي من الناس أن عزوا وإن كثروا

= عند ظهوره أسلم يوم فتح مكة وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن شهد حيناً والطائف. قال ابن المسيب: «فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقرب. قال فنظرت فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد». توفي بالمدينة وقيل بالشام سنة (٣١ هـ) وكانت ولادته سنة (٥٧ قبل الهجرة). انظر الأغاني ٨٩/٦، نكت الهميان ١٧٢، الأعلام ٢٠١/٣.

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبد الله (٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ) فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم أسلم في هذنة الحديدية. ولآه النبي ﷺ إمرة جيش «ذات السلاسل» وأمد به بأبي بكر وعمر، وهو الذي افتتح قسرين. وصالح أهل حلب ومنبج وإنطاكية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان عمرو مع معاوية. أخباره كثيرة. انظر الإصابة ٥٠١/٢، والأعلام ٧٩/٥.

يا هاشم الخير إن الله فضلكم
 على البرية فضلاً ماله غيرُ
 فثبت الله ما آتاك من حسن
 تثبيت موسى، ونصراً كالذي نصروا
 وهذا حسان بن ثابت، شاعر النبي يرد على أبي سفيان ويعرضُ
 به :

هجوت محمداً فأجبت عنه
 وعند الله في ذاك الجزاء
 فإن أبي والدة وعرضي
 لعرض محمد منكم وقاء
 أتجهوه ولست له بكفاء
 فشركمما لخيركمما الفداء

ومما قاله كعب بن مالك يوم أحد:
 فجننا إلى موج من البحر وسطه
 أحايش منهم حاسر ومقنع^(١)
 ثلاثة آلاف ونحن نصية
 ثلاث مئين إن كثرنا وأربع
 فراحوا سراغاً موجفين كأنهم
 جهام هراقت ماء الرِّيح مقلعُ

(١) الأحايش: جماعة من قريش نسبت إلى جبل «حشي» لأنهم اتفقوا عنده.
 الحاسر: الذي ليس على رأسه خوذة.

ورحنا وأخرنا بطاء كأننا

أسود على لحم بييشة ضلَعُ

وواضح من المقاطع السابقة، أن هذا اللون من الشعر في صدر الإسلام كان يتميز بالبعد والمبالغة، والميل إلى الدقة، والعناية بالوضوح في المعاني وجزالة الأسلوب وقوة البيان، وصدق الشعور.

وبانتصار الدعوة الإسلامية، وإذعان قريش لأمرها، ودخول كافة العرب ضمن دائرة الدين الجديد، انتهى الصراع بين شعراء قريش وشعراء النبي، وخمدت جذوة الشعر السياسي، واستمرت كذلك خلال عهد الراشدين، ولكنها عادت قوية ضارية بعد مصرع عثمان، واحتدام الخلاف بين معاوية والإمام علي. وهكذا تجددت معركة الشعر ببدء الثورات والفتن الدامية بين المسلمين، وشهد الشعر السياسي ذروة تطوره في العصر الأموي.

الشعر السياسي في العصر الأموي وأغراضه:

كان لأساليب الدهاء والخداع التي استند إليها معاوية وعمر بن العاص في حادثة التحكيم أثر سيء في نفوس المسلمين عامة، والبيت خاصة. ومع أن الأمور قد استتبَّت لبني أمية وتمكَّنوا من استلام زمام المبادرة، فإن صفوف المعارضين زادت قوة وشدة. وإذا كانت العصبية القبلية قد انخزلت شوكتها إبان صدر الإسلام، بفضل الرابطة الجديدة التي جمعت العرب ووحدت كلمتهم فإن تعزيز الأمويين

لقريش، أيقظ هذه العصبية النائمة، وأثار نعرتها، فنشأت الأحزاب السياسية.

وكان لظهورها الأثر القوي في تكوين الآراء والنظريات حول الخلافة وصاحب الحق فيها، وكان لا بد للشعر أن يخوض معركة الصراع بين هذه الأحزاب، وأن يدخل معترك الجدل السياسي الذي احتدم بين بني أمية أصحاب الدولة آنذاك وخصومهم، وعلى هذا النحو بات الشعراء في كل من هذه التكتلات السياسية دعاة للعقيدة السياسية عند كل جماعة وعاد الشعر السياسي أكثر توقداً وازدهاراً وأوسع أفقاً مما كان عليه في العهدين السابقين. واعتبر الشعر السياسي هو أكثر أنواع الشعر رواجاً في ذاك العصر اقتضته أحوال السياسة عامة. من صراع الأحزاب، إلى وراثة الحكم، إلى نظريات سياسية جديدة، وإلى عصبية قبلية قيسية ويمنية، وإلى صراع عرقي بين الموالي والعرب. ومن أبرز خصائص هذا الفن:

١ - إنه أصبح غرضاً يقصد لذاته وتنشد فيه القصائد حتى عُدَّ من الأغراض التي جذت في العصر الأموي. وقد امتد أثره فشمَل كل الأغراض كالمدح والهجاء والفخر وحتى الغزل (تغزل ابن الرقيات بأم البنين).

٢ - إنه أصبح موزعاً بين الأحزاب. لكل حزب شعراؤه الذين ينطقون باسمه ويدافعون عنه وينادون بحقه، ويردّون على الأعداء ويهجونهم ويمتدحون الشخصيات التي تنزع من الأحزاب، ويربطون كل ذلك بالدين وتعاليمه وأسمه.

٣ - إنه كان لشعر كل حزب خصائص تميّزه عن شعر الأحزاب

الأخرى. فشعر الأمويين يمتاز بأنه:

أ - يضفي على الخلافة الأموية هالة من الدين، وينادي بما يزعم بمقولة الحق الإلهي في الحكم.

ب - يطالب بحق عثمان بالخلافة وحق الأمويين بإرثه.

ج - يحمل شعراؤه على خصوم بني أمية ويكفرون بعضهم لأنهم يعصون الخلفاء الذين اختارهم الله على زعمهم ومنحهم السلطان والتأييد.

د - يشارك بعض شعرائه في السياسة الأموية نفسها، من مناصرة أمير على أمير. كما فعل مسكين الدارمي^(١) حين روج لبيعة يزيد، وكما فعل النابغة الشيباني حين أيد رأي عبد الملك في نزع الولاية عن أخيه، وجعلها لابنه وجريير حين جرى الوليد بن عبد الملك في خلع أخيه وتولية ابنه.

أما شعر الشيعة فيمتاز بما يلي:

١ - الإشادة بحب آل البيت، إذ كان الشعراء يجدون في هذا الحب تبركاً ومثوبة.

٢ - التفجع على القتلى من الطالبين، ورثاؤهم ورثاء أنصارهم.

٣ - الاحتجاج للشيعة وإظهار ما زعموا حقهم بالخلافة.

(١) هو ربيعة بن عامر توفي (٨٩ هـ). انظر الأعلام ١٦/٣.

٤ - الحملة على بني أمية لانتزاعهم هذا الحق وقسوتهم على آل البيت ومن يناصرهم.

٥ - المناداة برجعة الإمام المنتظر، لينشر العدل في الأرض ويعيد إلى ربوعها السلام.

٦ - حرارة العاطفة في التفجّع والبكاء والنقمة على الظالمين.

٧ - غلبة العاطفة الدينية على شعرهم.

وأما شعر الخوارج ففيه:

١ - تصوير لشجاعتهم وبطولتهم وتقانيهم في سبيل مبادئهم.

٢ - تصويرهم لما اعتقدوه تقوى وزهداً وقضائهم اللبالي في الصلاة والتهجد، وانصرافهم في النهار إلى الجهاد والحرب.

٣ - حضّ على الثورة وتأجج ضد الأمويين أولاً والطالبيين ثانياً.

٤ - اتصاف بشيء كثير من الجزالة الأسلوبية وقوة التعبير وخلو من العصبية العرقية أو القبلية لأن مبادئهم قد وحدث بينهم وطبعتهم بطابع التحاب والديموقراطية. لا يؤثرون عربياً على عجمي ولا قرشياً على غير قرشي.

٥ - تشابه في المعاني والأسلوب والموضوعات، لاستقائهم من نبع واحد، وتغنيهم بعاطفة واحدة.

أما في شعر الزبيريين فليس فيه معيزات خاصة، سوى الدعوة إلى جعل الخلافة في قريش، والإشادة بعبد الله بن الزبير والاحتجاج له بأنه أكفأ القرشيين وأحقهم بالخلافة. ولقد عمد عبيد الله بن قيس

الرقبات إلى نوع من الكيد لبني أمية، بأن تغزّل بأم البنين، وأفحش في ذلك ولم ينجه من العقاب سوى شفاعة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^(١) وأم البنين نفسها.

ولقد كان الشعر في العصر الأموي يشتمل على مطالع غزلية ووصف للطلول، وعلى مديح وهجاء، وفخر ومُحاجة، ووصف للمعارك والحروب، وإشادة بالانتصارات والأبطال الذين حققوها.

وتفرعت السياسة في الشعر إلى نوعين: حزبية وقبلية. أما السياسة الحزبية فكانت تلوذ بالأحزاب التي ذكرناها آنفاً. وأما السياسة القبلية فكانت تتناول حياة القبائل واتجاهاتها وعصياتها وحروبها، كما هي الحال بين القيسية واليمنية، وكما هي الحال أيضاً بين تميم والأزد، وغطفان وتغلب وقيس عيلان وغيرها. لكن العصيات القبلية نفسها كانت أكثر الأحيان مشدودة إلى عجلة الخلافة والحزبيات، كما نرى في شعر الأخطل وجريز والفرزدق وسواهم.

كذلك حافظ الشعر الأموي على كثير من الأغراض القديمة كالْفخر والحماسة والثناء، والطرديات والمديح والهجاء. ولكن بعض هذه الأغراض لم تقف عند معالمها القديمة بل تعدّت إلى آفاق رحبة من حيث المعاني والصور والأخيلة والقيم الشعورية. وفي مقدمة هذه الفنون التي انسأقت مع روح العصر واستجابت

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب صحابي ولد بأرض الحبشة وهو أول من ولد بها من المسلمين (١ هـ) كان كريماً يسمى بحر الجود وللشعراء فيه مدائح وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفين. مات بالمدينة (٨٠ هـ).
فوات الوفيات ١/٢٠٩، الأعلام ٤/٧٦.

لأحداثه وظروفه المديح والهجاء. فالمديح قوي شأنه في العصر الأموي، وأقبل عليه الشعراء يتكسبون به وتشجعهم في ذلك هبات الأمويين وكثرة عطائهم. والمديح نوعان:

أ - مديح سياسي:

يدخل في نطاق شعر السياسة. معظمه كان تطوعاً وإيماناً بحق الممدوح بفضله، كامتداح شعراء الأحزاب لزعمائهم، وتغنيهم بفضلهم، ولا سيما ذلك المديح الذي كان يوجه إلى آل البيت؛ وأفضل مثال عليه ما قاله الفرزدق في مدح زين العابدين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه، والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك «من هذا؟» بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم
كلنا يديه غياث عم نفعهما
يتوكفان، ولا يعرفهما عدم
سهل الخليفة لا تخشى بوادره
يزينه اثنان: حسن الخلق والشيم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا

حلوا الشمائل تخلصو عنده نعم
 ما قال: لا قط إلا في شهده
 لولا التشهد كانت لاء نعم
 عم البرية بالإحسان فانقشعت
 عنها الغياهب، والاملاق والعدم
 إذا رآته قريش قال قائلها:
 «إلى مكارم هذا ينتهي الكرم»
 يفضي حياء ويغضي من مهابة
 فما يكلمهم إلا حين يتسم
 يكاد يمسه عرفان راحته
 ركن العظيم إذا ما جاء يستلم
 الله شرفه قدما، وعظمه
 جرى بذاك له في لوحه القلم
 مشتقة من رسول الله نبعته
 طابت مغارسه والخيم والشم
 من معشر حبههم دين ويغضهم
 كفر، وقربهم منجي ومعتصم
 مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
 في كل بدء ومختوم به الكلم
 إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم
 أو قيل: «من خير أهل الأرض؟» قيل: «هم»

وقيل: إن هشام بن عبد الملك، حج إلى مكة في خلافة أبيه

فقام بالطواف وسعى إلى التماس الحجر الأسود، فمنعه زحام الحجيج من بلوغه وفيما هو يتأمل الجموع مع نفر من رجاله، أقبل علي بن الحسين الملقَّب بزين العابدين وكان قد طاف بالبيت الحرام ورام الحجر الأسود، فأسرع الناس بإفساح الطريق له وانشقت صفوفهم لتمكينه من استلامه. فسنل هشام بن عبد الملك: من يكون هذا الذي أحاطه الناس بالتجلَّة والوقار؟ فأنكر هشام أمره وقال: لا أعرفه، لئلا تجتمع القلوب حوله.

لكن الفرزدق أجاب السائل: «أنا أعرفه». فقبل له: «ومن هو يا أبا فراس؟» فأنشد الفرزدق قائلاً:
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
واليـت يعرفه والحل والحرم

فأنار هذا المديح غضب هشام وأمر بحبس الفرزدق فهجاه بقوله:

أتجسني بين المدينة والتي
إليها قلوب الناس يهوي منيها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيّد
وعين له حواء باد عيوبها
فلما سمع هشام هذا الشعر سارع بإطلاق سراحه خوفاً من أن يتمادى في هجائه.

ب - مديح تكسبي:

لم ترع فيه النزعات السياسية الخاصة بالشعراء، وإنما كان

أصحابه يبيعونه من خلفاء بني أمية وقوادهم وولاتهم مع أنهم في داخل أنفسهم يكرهون بني أمية. ولسنا نقول إن جميع ما ورد من هذا المديح لم يكن مبنياً على الصدق والإخلاص، وإنما نقول: إن الكثير منه كان كذلك. والأمويون يعرفون حقيقة الأمر تمام المعرفة لكنهم يفضُّون النظر عن هذا، بل ويعتمدون استمالة الشعراء المعارضين إليهم كي يمدحهم، لما في ذلك من دعاوة لهم، ولما فيه من تأليف قلوب الشعراء، وإسكاتهم عن هجاء بني أمية والتعصب لأحزابهم. لذا تراهم قد استقدموا أكثر الشعراء الذين ظهروا في عصرهم وأجزلوا لهم العطاء واشتروا مدائحهم.

ومن أبرز مدّاحي العصر الأموي:

جرير، والأخطل، والفرزدق وراعي الإبل، والنابعة الشيباني^(١)، وأبو العباس الأعمى، وعبيد الله بن قيس الرقيّات. على أن عدد الشعراء الذين وفدوا على البلاط الأموي ولا سيّما في أيام عبد الملك بن مروان بلغ عدة مئات.

- الهجاء:

من الفنون الشعرية التي شاعت كثيراً في العصر الأموي لأغراض سياسية ولعصبية قبلية وأسباب شخصية خاصة بالشعراء. ويمتاز

(١) هو عبد الله بن المخارق بن سليم بن حضيرة بن قيس من بني شيبان: شاعر بدوي من شعراء العصر الأموي كان يقد إلى الشام فيمدح الخلفاء ويجزّلون له العطايا. له في الوليد مدائح كثيرة، ومات في أيام الوليد بن يزيد سنة (١٢٥ هـ) له (ديوان شعر). انظر الأغاني ١٠٦/٧، والأعلام ١٣٦/٤.

هجاء العصر الأموي بإقذاعه وإفحاشه وامتلائه بالشتائم، وبذاءة الألفاظ، والصور الخبيثة التي كان الشاعر يسخر بواسطتها من خصمه ويحط من قدره بين الناس.

وأفحش الأهاجي ما قاله الفرزدق وجريز في ما سمي بالنقائض، ولكن جريز كان أشد قسوة من صاحبه وأكثر سخرية وأقدر على الإفحام، وقصيدته الدامغة^(١) في الراعي النميري وبني نمير مشهورة جداً.

ومنها قوله:

فما هبت الفرزدق قد علمتم

وما حق ابن بروع إن يهابا^(٢)

أعد الله للشعراء مني

صواعق يخضعون لها الرقابا

قرنت العبد عبد بني نمير

مع القينين، إذ غلبا، وخابا

أتاني عن عرادة قول سوء،

فلا، وأبي عرادة ما أصابا^(٣)

(١) الدامغة: سميت بذلك لأن وقعها الشديد يبلغ الدماغ فيصيب مقتله.

(٢) بروع: اسم ناقة الراعي النميري. نسبة جريز إلى ناقتة تهكماً واحتقاراً.

(٣) عرادة: رواية الراعي النميري.

لبئس الكسب تكسبه نعيم
 إذا استأنوك وانتظروا الإيابا
 ألتئم السباب بنو نعيم؟
 فقد وأبهم لاقوا سبابا!
 أنا البازي المذل على نعيم
 أتحت من السماء لها انصبابا؟
 إذا علقنت مخابله بقرن
 أصاب القلب، أو هتك الحجابا
 ترى الطير العتاق تظل منه
 جوانح للكلاكل أن تصابا^(١)
 فلا صلى الإله على نعيم
 ولا سقيت قبورهم المحابا!
 وقد حلت نساء بني نعيم
 وما عرفت أناملها الخضابا^(٢)
 إذا حلت نساء بني نعيم
 على تبراك خبت الترابا^(٣)

(١) الطير العتاق: خيارها، الكلاكل: ج كلكل، الصدر، جوانح: مائلات أي أن الطيور الكاسرة تخاف هذا البازي فتلتصق بالأرض أو تتجنبه بالابتعاد عنه.

(٢) جلت: لقطت الجلدة. البعرة، يقصد أن نساء بني نعيم لا يعرفن سوى القذارة يلتقطن بأيديهن بعير الدواب فتسخ ولسن كالنساء المكرمات اللواتي يخضبن أناملهن.

(٣) تبراك: ماء لبني العنبر، أين أنهن يدنسن التراب المحيط بهذا الماء لأنهن مردولات.

ولو وزنت حلوم بني نمير
 عمى الميزان، ما وزنت دباباً^(١)
 فصبراً يا تيوس بني نمير
 فإن الحرب موقده شهاباً
 ستهدم حائطي قرماء مني
 قواف لا أريد بها عتاباً^(٢)
 دخلن قصور يشرب معلقات
 ولم يتركهن من صنعاء باباً
 تطولكنم جبال بني تميم
 ويحمي زارها أجمأ وغاباً
 ألم نعتق نساء بني نمير؟
 فلا شكراً جزين ولا ثواباً
 ففض الطرف إنك من نمير
 فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
 أنعدل دمنة خبثت وفلئت
 إلى فرعين قد كثرا وطاباً
 فيا عجيبي أنوعدني نمير
 براعي الإبل يحترش الضباباً^(٣)

(١) حلوم: عقول، يحترق بني نمير فينفي عنهم رجاحة العقل. ويجعل عقولهم
 لخفتها لا توازي وزن ذبابة.

(٢) قرماء: قرية لبني نمير.

(٣) يحترش: الاحتراس. تحريك اليد في جحر الصَّب فإذا أخرج ذنبه شده به،
 تحقير للراعي واستهزاء ببني النمير التي هدته به مع أنه لا يتناول إلى =

لعلك يا عبيد حسبت حربي
تقلدك الأصرة والملايا^(١)
إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضاباً
السنا أكثر الثقلين رحلاً
يطلقن منى، وأعظمه قباباً
لنا البطحاء تفعمها السواقى
ولم يك سيل أوديتي شعاباً
فما أنتم؟ إذا عدلت قرومي
شقشقتها وهافتت اللعابا^(٢)

وراعي الإبل عبيد بن حصين النميري أحد هؤلاء الشعراء الذين
أخزاهم جرير، وإذا علمنا بأن الراعي في نظر ابن سلام^(٣) أحد

= مكانه.

(١) الأصرة: جمع صرار، ما يشد خلف الناقة لتلا يرضعها ولدها. الملايا: ج. علة قذح كبير يحلب فيه.

(٢) عدلت: أمالت رؤوسها، القروم جمع قرم سمة في أنف البعير، الشقاشق: جمع شقشقة ما يخرج من فم البعير إذا هاج، هافتت اللعابا: أخرجت لعابها من أفواهها، استفهام يقصد به الازدراء، فينو نمير دون جرير في المكانة. فشه نغمته وهجاءه بما تلفظ الإبل من لعابها أثناء الهياج.

(٣) هو محمد بن سلام بالتشديد بن عبيد الله الجمحي أبو عبد الله إمام في الأدب من أهل البصرة (١٥٠ - ٢٣٢ هـ) ألف كتاباً في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين عني بنشره «فون جوزيف هل». كان يقول بالقدر فقال أهل الحديث: «يكتب عنه الشعر أما الحديث فلا». فهرست ابن النديم ١١٣، =

شعراء الطبقة الأولى، بعد المثلث الأموي وأن أبا زيد القرشي^(١) جعله من أصحاب الملحقات، اتضح لنا مقدار رعونة جرير في الهجاء.

أما المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة فتتصل بسلسلة طويلة من أهاجي جرير منها اضطرار الفرزدق للرد على جرير دفاعاً عن قومه وكان هذا سبباً أو من أسباب تلاحم العملاقين. وكان راعي الإبل يقضي للفرزدق على جرير ويفضله على الرغم من هجاء الفرزدق عشيرته. فلما لقيه جرير قال له: «يا أبا جندل إن قولك يستمع وإنك تفضل الفرزدق عليّ تفضيلاً قبيحاً وأنا أمدح قومك وهو يهجوهم، وهو ابن عمي ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة». فسكت الراعي. ولكن جندلاً قال لأبيه غاضباً: «لا أراك واقفاً على كلب من كليب، كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً». ثم ضرب بغلة جرير بسوط كان في يده فرمحته رمحة وقعت فيها قلنسوته. فأثار جريراً تهجم جندل عليه وأقسم لينتقم من الراعي وابنه. فجاء منزله، وجلس في عليّة له، وطلب باطية من نبيذ وظل يهتمهم في شبه جنون، فما جاء السحر حتى أتم القصيدة، فصاح قائلاً: «أخزيته ورب الكعبة» ثم خرج إلى المربد وألقاها على مسامع الناس، والفرزدق والراعي وابنه حضور. فلما أتى على تمامها قال الراعي لقومه: «ركابكم ركابكم،

= والوافي بالوفيات ١١٤/٣، الأعلام ١٤٦/٦.

(١) هو محمد بن أبي الخطاب القرشي أبو زيد. راوية عالم بالشعر توفى (١٧٠ هـ) صنف جمهرة أشعار العرب. طبع باعتناء سعيد عمون اللبناني.

انظر معجم المطبوعات ٣١٣ - الأعلام ١١٤/٦.

فليس لكم هنا مقام، فضحككم جرير. وأقسم بالله ما بلغه إنسي وإن لجرير لأشياءاً من الجن»^(١).

ولسنا نجد في الهجاء الأموي تطوراً مهماً في المعاني والأخيلة والصور حتى ولا في الأسلوب إلا ما كان من شأن النفاض التي برع بها شعراء المثلث الأموي: جرير والأخطل والفرزدق.

ولقد عرف العصر الأموي أغراضاً شعرية أخرى كانت أقل انتشاراً مما ذكرنا، وأبرزها شعر الخمر واللهمو والمجون الذي ينضوي جزء منه تحت الغزل الحضري وما فيه من خلع للعدار، والجزء الأكبر يتجلى في خمريات الأخطل وكانت على شيء من الرصانة والإتزان وحسن الخلق. كما يظهر في خمريات الوليد بن يزيد^(٢) الذي خرج على كل وصايا الدين، وانغمس في الخمر والغناء والمجون، وانتشر صيته، بين الناس، فأحدث ذلك مشكلة سياسية لكون الوليد واحداً من الأسرة الأموية الحاكمة وولي عهد، وقد تولى الخلافة فترة قليلة وانتهى ضحية الصراع السياسي.

ولكن شيئاً جديراً بأن يقال في هذا المقام هو أن خمريات الأخطل والوليد بن يزيد قد أضفت على الشعر الخمري رونقاً بعد أن

(١) انظر الأغاني لأبي الفرج ٣١/٨.

(٢) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو العباس (٨٨ هـ - ١٢٦ هـ) من ملوك الدولة مروانية بالشام. يعاب بالانهماك في اللهمو وسماع الغناء له شعر رقيق وعلم بالموسيقى. كان مشهوراً بالالحاد متظاهراً بالعتاد. قتله أصحاب يزيد في قصر النعمان بن بشير. انظر الطبري ٦٥/٨، الأغاني ٢٧٤/١، الأعلام ١٢٣/٨.

كاد يدركه الغناء. وإذا كان الأخطل قد تتلمذ للأعشى، ولم يتجاوزه كثيراً في شعره الخمري، فإن الوليد قد قطع في ذلك شوطاً بعيداً وكان في خمرياته ممهداً لأبي نواس ومسلم بن الوليد وسواهما من شعراء الخمرة في العصر العباسية.

وهذا التمهيد إنما نعني به الانصراف إلى حياة اللهو وجعل الخمرة لذة كبرى، وعنواناً للعيش الرغيد، والربط بين الخمرة والغناء والحب والمجون وتطور الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية، وتطوير المعاني الخمرية والصور والأسلوب، بحيث أن كثيراً من شعر الوليد يشبه شعر أبي نواس حتى ليظن قارئه لأول وهلة أنه للنواسي.

أما سائر الأغراض التي كان لها نصيب ضئيل في العصر الأموي فالوصف والثناء والحكمة، لكنها لم تنعدم كلياً وإنما كانت قليلة فقط. وهناك نوعان شعريان لم يكونا نادرين في العصر الأموي، هما الفخر والرجز. أما الفخر: فمعظمه ورد في الشعر السياسي وفي شعر العصبيات القبلية والنقائض الهجائية والمديح.

وأما الرجز: وهو بحر من الشعر كان الشعراء يضمنونه أغانيهم الشعبية في الأفراح والحروب وغير ذلك فقد تطور حتى وقف جنباً إلى جنب مع الشعر الكلاسيكي المعروف؛ ومن أبرز شعرائه العجاج^(١)

(١) هو عبد الله بن ربيعة العجاج راجز مجيد من الشعراء ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها ثم أسلم وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك فقلج وأقعد وهو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد وكان لا يهجو وهو والد رؤية الراجز المشهور أيضاً. له ديوان في مجلدين (توفي سنة ٩٠ هـ). انظر الشعر =

-
- = والشعراء ١٤١، وقيل انه سقى العجاج بقوله: حتى يعج عندها من عجمجا. وأخذ عليه قوله. انظر الأغاني ١/٤، الأعلام ٨٦/٤.
- (١) هو الفضل بن قدامة العجلي أبو النجم من أكابر الرجاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر نبغ في العصر الأموي. توفي سنة (١٣٠ هـ) انظر الأغاني ١٥٠/١٠، الشعر والشعراء ١٤٢، الأعلام ١٥١/٥.
- (٢) هو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي أبو الجحاف أو أبو محمد راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية (١٤٥ هـ) وقد أسن وله ديوان رجز، وفي الوفيات: لما مات رؤبة قال الخليل: «دفنا الشعر واللغة والفصاحة». وفيات الأعيان ١/١٨٧، البداية والنهاية ٩٦/١٠، الشعر والشعراء ١٤١، الأعلام ٣/٣٤.

الفصل الثالث

نسبه وخبره:

قال أبو الفرج الأصبهاني في نسبه هو: الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد بن وهيب بن عمرو بن سبيع الأمدي أبو المستهل^(١). وقيل: هو الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد بن ذؤيبة بن قيس بن عمرو بن سبيع بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار^(٢). ويذكر الأمدي اختلافاً آخر في نسبه ويذكره هكذا هو:

(١) انظر ترجمته: شرح شواهد المغني ١٣، الأغاني ٣/١٧، وجمهرة أشعار العرب ١٨٧، ومجمع الأمثال: في الكلام على مادر، والشعر والشعراء ٥٦٢، والشعر والشعراء ابن قتيبة ١٣٩ وخزانة الأدب ٦٩/١ وما بعدها، والأعلام ٢٣٣/٥، ومجمع المطبوعات ١٥٧٠.

(٢) انظر الأغاني ٣/١٧.

الكميت بن زيد بن الأخنس بن مجالد بن ربيعة بن قيس بن الحارث بن عامر بن ذؤيبة بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد^(١). وقد أسقط الآمدي اسم سبيع. وانظر خلافاً آخر في كتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي^(٢) ويحمل اسم الكميث شعراء ثلاثة من بني أسد وهم الكميث بن زيد، والكميث الأكبر بن ثعلبة بن نوفل، والكميث بن معروف بن الكميث الأكبر^(٣).

وقال ابن سلام: إن الكميث بن معروف «أشعرهم قريحة»، والكميث بن زيد «أكثرهم شعراً». والظاهر أن عائلة الكميث لم تكن ذات مجد عريق، ولم يكن في أعضائها من نال قيادة أو إمارة. وإن شهرة الكميث اعتمدت على شخصيته وطموحه الفردي.

وقد عرف التاريخ جماعة من أهله ومن ذوي قرياه منهم:
- عمه عبد الواحد بن قيس، وهو والد زوجته حُبَي بنت عبد الواحد وكنيتها أم المستهل، وله أخ اسمه ورد بن زيد^(٤)، وله من الأولاد حبيش بن الكميث والمستهل بن الكميث^(٥) وهو أشهرهم.

ويلمَح الجاحظ في رسائله أنه له ولد آخر اسمه عمارة وبه

(١) انظر المؤلف والمختلف ٢٥٧.

(٢) انظر نهاية الأرب للقلقشندي ١٨١، رقم الترجمة (٦٤٠) بنو ثعلبة.

(٣) انظر المؤلف والمختلف ٢٥٧، ومعجم الشعراء ٢٣٧ وما بعدها.

(٤) انظر الأغاني لأبي الفرج ٣٣/١٧.

(٥) المصدر السابق ٤٣/١٧ وله بنت اسمها ريثاً ذكرها أبو الفرج ٤٢/١٧.

كتّاه^(١) . وكان له جدتان أدركتا الجاهلية ، وخاله الفرزدق كما يقول :
المرزباني^(٢) . وكان له مولى اسمه «صاعد»^(٣) . وكان راويته
محمد بن سهل^(٤) .

وترك مؤرخو الآداب أوصافاً لمظهر الكميّ وشخصيته ونفسيته
ويمكن أن نلخصها هنا كما وردت في الأغاني : «كان الكميّ بن زيد
طويلاً أصم ولم يكن حسن الصوت ولا جيد الإنشاد فكان إذا استشهد
أمر ابنه المستهل فأنشد وكان فصيحاً حسن الإنشاد»^(٥) .

وكان للكميّ في عيّنه عمش كما يظهر من كتاب زيد بن علي
إليه «أخرج معنا يا أعيمش» ألس القائل :
ما أبالي إذا حفظت أبا القا
سم فيكم ملامّة اللوام^(٦)

وأكد صممه ابن فارس في مقاييس اللغة . قال :
«الأصلخ : الاسم - كان الكميّ أصم أصلخ»^(٧) . وذكره
الثعالبي في الصم كذلك^(٨) وذكر المرزباني أنه كان

(١) انظر رسائل الجاحظ ١٣٦/٢ .

(٢) انظر أخبار شعراء الشيعة للمرزباني ٦٥ .

(٣) انظر الأغاني ٣٩/١٧ .

(٤) المصدر السابق ٤/١٧ .

(٥) انظر المصدر السابق ٣٨/١٧ .

(٦) المصدر السابق ٣٦/١٧ .

(٧) انظر مقاييس اللغة ٣/٣٠٣ «صلخ» .

(٨) انظر لطائف المعارف ١٠٦ .

أحمر^(١) . ويبدو أنه استتج من وصفه بأنه أحمر وبأنه أعمش أن شعره كان أبيض كلون شعور الذين يكونون بيض البشرة عمش العيون . ولم يترك المؤرخون وصفاً لشعره لأنه لم يكن ليبدو من تحت عمامته أو لباس الرأس الذي كان يلبسه .

حياته ونشأته:

ولد الكميت بالكوفة سنة ٦٠ هـ وكانت الكوفة عاصمة العراق، في السنة التي مات فيها معاوية، وقد ذكر أبو الفرج في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي بن أبي طالب^(٢)، والمعروف أن الحسين بن علي قتل في سنة (٦١ هـ) أي بعد ولادة الكميت بسنة واحدة^(٣)، وكان عمر الكميت ستاً وعشرين سنة حين مات عبد الملك، واستخلف الوليد عام (٨٦ هـ) وكان عمره ستاً وأربعين سنة حين استخلف هشام عام (١٠٥ هـ).

والجدير بالذكر أن الكوفة في تلك الحقبة كانت مركز إقامة حكام العراق وكانت تسامي دمشق عاصمة الدولة في العظمة والاتساع، وتسمو عليها، من الناحية العلمية والأدبية، حتى ملوك بني مروان يرجعون إلى علماء العراق فيما يشكل عليهم من مسائل العلم والأدب. وكانت الكوفة مهذاً للتشيع، كما كانت دمشق مهذاً للتشيع

(١) انظر معجم شعراء الشيعة ٢٧٨ .

(٢) انظر الأغاني ٤٢/١٧ .

(٣) انظر المنتظم ٣٣٥/٥، وشذرات الذهب ٦٦/١، والكامل في التاريخ

٤٢٨/٣ .

الأموي، فلما قام معاوية بالشام يناوئ علي بن أبي طالب، انضم أهل العراق إلى علي فيما قام بينهما من حروب واستمروا على تشييعهم بعدما صار الحكم إلى الأمويين.

وهنا يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي: «وإني أرى أن هذا الخلاف السياسي بين العراق والشام ليس إلا أثراً لما كان بينهما من الخلاف في الجاهلية، إذ كان يقوم بالعراق دولة المناذرة، ويقوم بالشام دولة الفسائيين، وكان بينهما من الخلاف السياسي ما هو معلوم، ولعل علماً لم يترك المدينة إلى الكوفة إلا ليضم بذلك أهل العراق إليه، لما يعود عليهم من المصلحة بانتقال العاصمة الإسلامية إلى الكوفة، وقد كان في العراق من الرجال والخصب ما يضاهي الشام، فأراد أن يستعين بذلك في حروبه لمعاوية، ويستغل ذلك الخلاف القديم بين العراق والشام في تأييد خلافته، ولو أنه بقي في الحجاز لم يجد فيه من الحاقدين على بني أمية ما وجدته في العراق»^(١).

وقد نشأ الكميّ بالكوفة وهي في هذه الحالة التي صارت إليها في العلم والسياسة وكان قومه بها من بني أسد، فأخذ على علمائها علوم الدين والأدب، وكانت جدته تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية.

فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه، فاجتمع له

(١) انظر كتاب الكميّ بن زيد شاعر العصر المرواني لعبد المتعال الصعيدي ١٦/ وما بعدها.

بذلك ثقافتا الإسلام والجاهلية، وذوقا أهل الحضرة والبادية، وحصل من ذلك كله على علم غزير بلغات العرب وغريبها، وأشعارها وأيامها ومفاخرها ومثالبها، وألمّ بعلوم الإسلام كالحديث وغيره^(١).

ولم يقتصر الكميت في ذلك على دراسة العلم والأدب، بل كان يأخذ نفسه بقرض الشعر، ويجلس إلى الشعراء يستمع إليهم، ولكن اشتغاله بالعلم والأدب في نشأته، كان أكثر من اشتغاله بقرض الشعر.

وما زال بنو أسد بالكميت حتى صرفوه إلى قرض الشعر، فتفرغ له حتى وصل فيه إلى درجة الإجادة، وكان بتشجيع لأهل البيت مثل أهل الكوفة، ولم يكن للشيعنة يومذاك شاعر ينافح عنها ويؤيد دعوتها، وكان أكثر الشعراء يتملقون بني مروان طمعاً في صلاتهم وجوائزهم، فاختر الكميّ لنفسه أن يكون شاعر شيعة بني هاشم، واختصهم بمدحه وحارب اعداءهم من بني مروان وهجاهم بشعره، وقام في ذلك بما لم يقم به غيره ممن كان يتعصب للشيعنة.

وقد اشتغل الكميّ بالتعليم الذي كان يغلب على ميله، فكان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة، ولكن قومه بالكوفة كانوا يعرفون أنه يقول الشعر وكانوا يريدون أن يكون لهم شاعر بالكوفة يدافع عنهم وينشر مفاخرهم. وأخذ بنو أسد يرغبون الكميّ في قرض الشعر ويلحون عليه في الانصراف إليه والتفرغ له.

ومما يروى في ذلك أن عمه وكان رئيس قومه أخذ الكميّ

(١) انظر الأغاني ٣/١٧.

يوماً، فقال له يا كميت، لم لا تقول الشعر؟ ثم أخذه فأدخله الماء، وقال: لا أخرجك منه أو تقول الشعر. فمرت به قنبرة فأنشد متمثلاً:

يا لك من قنبرة بمعمر

خلا لك الجو فيفضي واصفري

ونفري ما شئت أن تنفري^(١)

فقال له عمه ورحمه: قد قلت شعراً، فاخرج. فقال الكميت لا أخرج أو أقول لنفسي. فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة، وهي أول شعره، ثم غدا على عمه، فقال له: اجمع لي العشيرة لسمعوا، فجمعهم له، فأنشد:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب

ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب

وقد ذهب الأستاذ زكي مبارك: «إلى أن هذه القصة غير صحيحة، لأنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره، لما فيها من القوة الدالة على أنها ليست بداية شعرية، وإنما هي صرخة شاعر طال منه الصيال»^(٢).

وهنا يقول عبد المتعال الصعيدي: «ولا وجه عندي للطعن في هذه القصة من هذه الناحية، لأن هذه القصيدة وردت فيها من

(١) هذا من شعر طرفة بن العبد.

(٢) انظر الشر الفني لزكي مبارك ١١٧/١.

هاشميات الكميت، وقد ثبت من غير طريق هذه القصة أن هاشمياته على العموم وهذه القصيدة على الخصوص كانت أول ما قاله من الشعر، [فقد شهد له الفرزدق أحسن شهادة في هاشمياته، واعترف بأنه سنّ بها سنة جديدة في الشعر وسلك مسلكاً جديداً لم يسلكه أحد من الشعراء، وذلك حينما قيل له: أحسن الكميت في مدائحه في تلك الهاشميات؟] فقال: وجد أجراً وجصاً فبني، وقال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني الحسن بن علي الخفاف، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي، قال حدثني أحمد بن بكير، قال حدثني محمد بن أنس السلامي، قال حدثني محمد بن سهل راوية الكميت، قال: جاء الكميت إلى الفرزدق لما قدم الكوفة، فقال له: إني قلت شيئاً فاسمعه مني يا أبا فراس قال: هاته. فأنشده قوله:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ

ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى

وخير بني حواء والخير يطلب

فقال له: قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه^(١).

وفي رواية أخرى لأبي الفرج عن محمد بن علي النوفلي، قال

(١) انظر الأغاني ٣٠/١٧.

سمعت أبي يقول: لما قال الكميت بن زيد الشعر، كان أول ما قاله الهاشميات فسترها، ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له: يا أبا فراس، إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي، قال له: صدقت أنت ابن أخي فما حاجتك؟ قال: نفت على لساني فقلت شعراً، فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره وكنت أولى من ستره عليّ. فقال له الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإنني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ما قلت. فأنشده:

طرب وما شوقاً إلى البيض أطرب

قال فقال لي: فيم تطرب يا ابن أخي؟ فقال:
ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب

فقال: بلى يا ابن أخي، فالعب فإنك في أوان اللعب فقال:
ولم يلهنني ولا رسم منزل
ولم يتطربني بنان مخضب

فقال: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:
ولا السانحات البارحات عشيّة
أمراً سليم القرن أم مرّاً اعضب

فقال: أجل لا تطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقوى
وخير بني حواء والخير يطلب

فقال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:
إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيعمان بن بني اتقرب

قال: أرحني ويحك! ومن هؤلاء؟ قال:
بني هاشم رهط النبي فإني
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خففت لهم مني جناحي مودة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنيت لهم من هؤلاء وهؤلاء
مجنأً على أني أذم وأقصب^(١)
وأزمي وأرمي بالعداوة أهلها
وإني لأؤذي فيهم وأؤنبُ

فقال له الفرزدق: يا ابن أخي، أذع، ثم أذع: فأت والله أشعر
من مضى وأشعر من بقي^(٢).

فهذه شهادة الفرزدق لتلك الهاشميات التي قالها الكميّ والحق

(١) قصبه: عابه وشتمه.

(٢) انظر الأغاني ٣١/١٧.

أنها من أعظم الدرر اللوامع في الشعر العربي، وأن شعر الكميت يسمو بها على شعر غيره من شعراء عصره، وقد أجاد فيها مدح بني هاشم وأحسن فيها الدعاية لهم وصور حكم بني مروان أشنع تصوير، فالهب بها النفوس إلهاباً، وأيقظها من غفلتها إيقاظاً، حتى هبت للثورة عليه، وانتهى بها الأمر إلى تقويض ذلك الحكم، وإقامة الدولة العباسية من بني هاشم. فكان شعر الكميت هو الطليعة لتلك الثورة، وهو الذي هيأ النفوس لها، وجعلها تستهين بالموت فيها.

ولا شك أن الشعر الذي يصل تأثيره إلى هذه الدرجة ويستطيع به صاحبه أن يقعد دولة وقيم دولة، لهو الشعر الذي يستحق صاحبه الزعامة به على شعراء عصره، لا ذلك الشعر الذي لا يعدو أمره أن يكون ألفاظاً جوفاء لا طائل تحتها، ولا ثمرة في هذه الحياة لها، ولا تهز الممالك كما هزها شعر الكميت].

ولا شك أنه لا يراد من هذا إلا أن الهاشميات كانت أول ما قاله من الشعر الجيد، وهذا لا يمنع أن يكون له شعر قبلها وأنه ما زال يجيد فيه من نفسه أو بتأثير قومه حتى وصل إلى درجة هذا الشعر الجيد، ولعل فعل عمه معه كان لحمله على توجيه شعره إلى تأييد دعوة بني هاشم، ثم حرق ذلك التحريف.

ومما يؤكد هذا ما ذكره السيوطي في شرح شواهد المغني، فقد ذكر: أن الكميت كان يفد على يزيد بن عبد الملك، وهو لم يقل الهاشميات إلا في عهد أخيه هشام. وكذلك ما ذكره الشريشي في شرح مقامات الحريري فقد ذكر أن الكميت قدم المدينة على

عبد الله بن الحسين^(١)، فأنشده هاشميته، وكان هذا بعد أن أذن له الفرزدق في إذاعتها، فعرض عليه عبد الله ضيعة له، فقال له الكميت: «بأبي أنت وأمي، كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال، ولا والله ما قلت فيكم شيئاً إلا لله، وما كنت لآخذ في شيء جعلته لله ثمناً»^(٢).

وقد أراد أصحاب الثراء من بني هاشم أن يثبوه على ما يقوم به من انشاء تلك القصائد الطوال في مدحهم والإشادة بذكرهم والدفاع عنهم وتأييد دعوتهم، فكان يعتذر إليهم عن قبول ما يعرضونه عليه، ويذكر لهم أنه يريد من ذلك وجه الله تعالى.

حدّث صاعد مولى الكميت قال: دخلنا على أبي جعفر محمد بن علي، فأنشده الكميت قصيدته التي أولها:
من لقلب متيم مستهام...

فأمر له بمال وثياب، فقال الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه، ولكنني أحببتكم للأخرة، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتهما، وأما المال فلا أقبله فردّه وقبل الثياب فقال: اللهم اغفر للكميت، اللهم اغفر بنت الحسين، للكميت^(٣). وحدّث أيضاً فقال: دخلنا على فاطمة بنت الحسين، فقالت: هذا شاعرنا أهل البيت، وجاءت بقدح فيه

(١) هكذا ورد في شرح المقامات للشريشي والصواب الحسن.

(٢) انظر شرح مقامات الحريري للشريشي.

وانظر أيضاً الكميت بن زيد لعبد المتعال الصعدي ١٩/ وما بعدها.

(٣) انظر الأغاني ٢٧/١٧.

سويق^(١) فحركته بيدها وسقت الكميت فشربه. ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب، فحملت عيناه، وقال: لا والله لا أقبلها، إني لم أحبكم للدنيا^(٢).

وحدث محمد بن سهل صاحب الكميت، قال: دخلت مع الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد في أيام التشريق، فقال له: جعلت فداك ألا أنشدك؟ فقال: إنها أيام عظام. قال: إنها فيكم. قال: هات. ويعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب، فأنشده، فكثر البكاء، حتى أتى على هذا البيت:

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم
فيا آخراً أسدى له الغي أول

فرفع أبو عبد الله يديه، وقال: اللهم اغفر للكميت ما قدم وما آخر، وما أسراً وما أعلن، واعطه حتى يرضى^(٣).

خصائصه النفسية:

وأما عن خصائصه النفسية فينقل الزجاجي: «أنه كان في الكميت

(١) السويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير. ويقال: السويق المقل الحتي والسويق السبق القتي والسويق الخمر، وسويق الكرم الخمر انظر اللسان مادة سوق ١٧٠/٢٠.

(٢) انظر الأغاني ٢٧/١٧ وما بعدها.

(٣) راجع كتاب الأغاني ٣٣/١٧.

حسد»^(١). وكان الكميت كثير الاعتزاز بنفسه وبنسبه وكان يرى نفسه لا يقل فضلاً عن قريش. «خطب رجل إلى الكميت، فظل يفتخر عليه، ويذكر فضل قريش وأكثر من ذلك. فقال له الكميت: يا هذا إن أنكحناك لم تبلغ السماء وإن رددناك لم تبلغ الماء وقد رددناك»^(٢).

وكان الكميت ذكياً وقد أظهر قابليته على الردود المسكتة في سن مبكرة فقد ورد عن الفرزدق ما يلي:

«إني كنت أنشد بجامع البصرة وفي حلقتي الكميت بن زيد وهو صبي فأعجبني حسن استماعه، فقلت له كيف سمعت يا بني؟
قال: حسن.

قلت: فيسرك اني أبوك؟

قال: أما أبي فلا أريد به بديلاً ولكني وددت أن تكون أمي!

قلت: استرها عليّ يا ابن أخي»^(٣).

وذكر عنه مثل هذا النشاط الذهني في رجولته. قال الزجاجي: «شهد الكميت الجمعة بمسجد الجامع فأحاط به علماء أهل الكوفة فيهم حماد والطرماح فجعلوا يسألون فكان لا يسأل عن حرف إلا كان كأنه ممثل بين عينيه فقال: ألا ألقى عليكم بيتاً. فقلنا: افعل يا أبا المستهل...»^(٤).

(١) انظر كتاب أمالي الزجاجي ٣٧.

(٢) انظر كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي [قسم]/(١٨٥).

(٣) انظر العقد الفريد ٥٢/٤، والأغاني ٢٦/١٧.

(٤) انظر كتاب مجالس العلماء ٢١٦.

ويبدو أنه كان يروي لعدد كبير من الشعراء القدامى والمحدثين
وكان يروي لمعاصريه فقد جاء في أمالي اليزيدي:

«اجتمع الكميت والنصيب في حمام فقال الكميت للنصيب
أنشدني قصيدتك:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الרכب
وقل إن تملينا فما ملك القلب

قال: والله ما أحفظها.

قال الكميت: ولكني أحفظها أفأشذك إياها؟

قال: نعم فابتدأ الكميت ينشده وهو يبكي»^(١).

ومما يدل على حياته الاجتماعية والاقتصادية المتواضعة تعليمه
الصبيان في مسجد الكوفة^(٢). وعن خلف: انه رأى الكميت يعلم
الصبيان في مسجد الكوفة^(٣). وذكره التوحيدي كأحد المعلمين الذين
اشتهروا في العصر الأموي مثل الضحاك بن مزاحم وعطاء بن أبي
رباح وعبد الحميد بن يحيى والحجاج بن يوسف وغيرهم^(٤).

وذكره الجاحظ في الخطباء الشعراء. وقال عنه في مكان آخر:
«قال الكميت - وكان خطيباً - أن للخطبة صعداء وهي على ذي

(١) انظر كتاب الأمالي لليزيدي ٨٠ وفي أمالي القاضي قال جرير: وددت أني
سبقت ابن السوداء يعني نصيباً إلى هذه الأبيات. ١٩٦/٢.

(٢) انظر كتاب فحولة الشعراء ٤٩.

(٣) انظر الأغاني ٢٤/١٧ وما بعدها.

(٤) انظر البصائر والذخائر ١/قسم ٤٤/٢.

علاقة الكميت بالدولة الأموية:

كان الكميت حين ولي عبد الملك طفلاً عمره خمس سنوات فراهق وشب في خلافته وكان عمره ستاً وعشرين سنة عند موته فهو دون شك قد قال الشعر في خلافته وقد مدحه ومدح عدداً من ولاية بني أمية وخلفائهم الذين تلوا عبد الملك، إلا أننا لا نجد له شيئاً في الوليد بن عبد الملك ولا في الحجاج بن يوسف (توفي ٩٥ هـ) ويبدو أنه لم يدخل بعد غمار الأحداث ولم يحن الدور الذي مثله على مسرح المجتمع الكوفي في خلافة هشام وفي ولاية خالد بن عبد الله القسري^(٢) إلا أن من بين الذين مدحهم من يحتمل أنه ظهر قبل خالد القسري على المسرح السياسي. فقد مدح:

زياد بن مغفل الأسدي والحكم بن الصلت الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي ومخلد بن يزيد بن المهلب وأبان بن عبد الله البجلي. ويزيد بن المهلب. وعبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص بن أمية ومسلمة بن عبد الملك.

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ١٣٤ .

(٢) هو خالد بن عبد الله القسري: (توفي سنة ١٢٦ هـ) وهو من بجيلة أبو الهيثم: أمير العراقيين وأحد خطباء العرب وأجوادهم يمني الأصل ولي مكة للوليد بن عبد الملك ثم ولاء هشام العراقيين فاقام بالكوفة. عزله هشام سنة (١٢٠ هـ) وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي الذي سجنه وعذبه ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد. الأعلام ٢/ ٢٩٧ .

ومدح من خلفاء بني أمية:

عبد الملك بن مروان، وهاشم بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك ورثى معاوية بن هشام بن عبد الملك، ومدح أيضاً يوسف بن عمر بعد أن قتل زيدا ومدح خالد بن عبد الله القسري. وهجا عبد الله البجلي والعريان بن الهيثم - وكان على شرط الحجاج - فما هي الدوافع التي دفعت بالكميت إلى خوض غمار السياسة؟ وما دفعه لنظم الهاشميات وتعرضه لذلك السجن والتشريد والعذاب؟

يبدو أن الكميت قد أظهر في مدائحه وأهاجيه التي سبقت فترة نظم الهاشميات ميلاً إلى العصبية القبلية واستعداداً لهذا النوع من الهجاء، ونجد في شعره نصوصاً كثيرة مليئة باللوم والتشريب لقبائل رأت أن تتحول بنسبها عن المضرة إلى اليمانية لأسباب تعتمد على المصلحة والمنفعة البحتة.

وكان هذا النشاط الفني في هذا الاتجاه قد سلط الأضواء عليه وساعد على الاستفادة من مقدرته في هذا الباب وكان الوضع السياسي في أواسط وأواخر العصر الأموي كما يلي:

١ - الكتلة الأموية: ويدها مقاليد الأمور وأزمة المال وهي تقبض بيد من حديد على مصالح المسلمين.

٢ - الكتلة العلوية: وقد غيّرت موقفها من الخلافة تغييراً جذرياً بعد معركة كربلاء.

٣ - الكتلة العباسية: وهي التي ابتدأت عام (١١١ هـ) تعمل بشكل سري للحصول على السلطة.

٤ - الكتلة اليمانية: وقد بدأ بعض أبنائها ينبغون ووصلوا إلى مستوى القيادة.

في ظل هذه الأجواء فقد شاع أمر الهاشميات التي قالها الكميت في مدح آل البيت، والطمع في ملك بني مروان، وتأليب الناس عليهم، ولهج بها العامة والخاصة، حتى صاروا يعدون حفظها وإنشادها [قربة وطاعة إلى الله تعالى]. وتناقلوا في ذلك أحاديث ورؤى عن النبي ﷺ، فارتفعت بذلك منزلة الكميت، وصار قومه بنو أسد يعدونه من مفاخرهم. ويقولون: «فينا فضيلة ليست في العالم - ليس منزل منا إلا وفيه بركة ورائة الكميت - لأنه رأى النبي ﷺ فقال له أنشدني:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب

فأنشده، فقال له: بورك وبورك قومك...!!

ويروي أيضاً من طريق آخر أن الكميت رأى النبي ﷺ في نومه وهو [على زعمه] مختبٍ من بني مروان فقال له النبي: مم خوفك؟ فقال: يا رسول الله من بني أمية، وأنشده:

ألم ترني من حب آل محمد
أروح وأغدو خائفاً أنرقب

فقال له النبي ﷺ: «اظهر فإن الله قد أمنك في الدنيا والآخرة!!».

وحدث إبراهيم بن سعد الأسدي، قال: سمعت أبي يقول: رأيت

رسول الله في النوم، فقال: من أي الناس أنت؟ قلت من بني أسد. قال: من أسد بن خزيمة؟ قلت: نعم. قال: أهلاً لي أنت؟ قلت: نعم. قال: أتعرف الكميث بن زيد؟ قلت: يا رسول الله عمي ومن قبيلتي. قال: أنحفظ من شعره شيئاً؟ قلت: نعم. قال أنشدني: طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب.

قال: فأنشدته حتى وصلت إلى قوله:
فمالي إلا آل أحمد شيعه
ومالي إلا مشعب الحق مشعب

فقال لي: إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام. وقل له: قد غفر الله لك بهذه القصيدة!!

وحدث نصر بن مزاحم المنقري أنه رأى النبي ﷺ في النوم ورجل بين يديه ينشده:

من لقب متيم مستهام

قال: فسألت عنه، فقل لي: هذا الكميث بن زيد الأسدي. قال: فجعل رسول الله ﷺ يقول: جزاك الله خيراً. وأثنى عليه.

وستجد عزيزي القارئ أن هذه ما هي إلا خرافات أشاعها الحزب السري العباسي للترويج للثورة كما سيأتي بيان هذه الفترة بعد هذا الفصل، على أن الكميث كان يكتفي بهذا البلاء الحسن في نصر آل البيت بشعره ولم يكن يتجاوز تأييدهم باللسان، إلى تأييدهم باللسان، وكان شأنه في هذا شأن القعدة من الخوارج، مثل عمران بن

حطان الشاعر الخارجي. ولا غرابة في أن يكون للشيعة قاعدة أيضاً، لأن مذهب الشيعة يقبل القعود أكثر مما يقبله مذهب الخوارج، لأن الخوارج كانوا يتشددون في مذهبهم غاية التشدد، أما الشيعة فكانوا يقبلون التقية في التشيع، والتقية أدنى مرتبة من القعود، لذلك روى أبو الفرج الأصبهاني أنه لما خرج زيد بن علي بن الحسين على بني مروان، كتب إلى الكميّ: أخرج معنا يا أعيمش، ألسن القائل: ما أبالي إذا حفظت أبا القا

سم فيكم ملامة اللوأم

فكتب إليه الكميّ:

تجود لكم نفسي بمادون وثبة
تظل لها الغربان حولي تحجل

ولم يكن قعود الكميّ عن القتال مع آل البيت عند خروجهم على بني مروان مما يغضبهم، لأنهم كانوا يكتفون منه بتلك الدعاية الشعرية العظيمة، ويأذنون له في التخلف عنهم، ليستمر في تلك الدعاية التي كانت تعمل ما لا تعمله السيوف في هدم بني مروان.

الكميّ وخالد بن عبد الله:

قد ظهر الكميّ بتلك الدعايات وعلى العراق خالد بن عبد الله القسري، وعلى عرش بني مروان هشام بن عبد الملك، وكان لا بدّ أن يصل الخبر عن تلك القصائد المسمّات «الهاشميات» وهنا تضطرب الروايات في منافرتة لخالد بعدها، في كيفية وصولها إليهما.

وسنذكر الآن هذه الروايات المضطربة، ثم نأخذ بعد هذا في الترجيح بينها ونقدّها.

الرواية الأولى: قال أبو الفرج: كان خالد بن عبد الله القسري فيما حدّثني به عيسى بن الحسين الوزّاق، قال أخبرنا أحمد بن الحارث الفزاري، عن ابن الأعرابي. وذكره محمد بن أنس السّلامي، عن المستهل بن الكميث وذكره ابن كناسة عن جماعة من بني أسد، أن الكميث أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن، وهي:

ألا حيَّيتِ عنا يا مدينا

فأحفظته عليه، فروى جارية حسناء قصائده الهاشميات، وأعدّها ليهديها إلى هشام، وكتب إليه بأخبار الكميث وهجائه بني أمية، وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها:

فيا رب هل إلّا بك النصر يُرتجى
ويا رب هل إلّا عليك المعمول

وهي قصيدة طويلة يرثي فيها زيد بن عليّ وابنه الحسين بن زيد^(١) ويمدح بني هاشم.

فلما قرأها هشام أكبرها واستنكرها وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميث ويده، فلم يشعر الكميث إلّا والخيل محدقة بداره فأخذ وحبس في المحبس، وكان أبان بن الوليد عاملاً على

(١) الصواب يحيى بن زيد، ولم نجد في هذه القصيدة ولا غيرها ذكراً لهما.

واسط، وكان الكميّ صديقه، فبعث إليه بـغلام على بغل، وقال له:
أنت حر إن لحقته والبغل لك، وكتب إليه:

قد بلغني ما صرت إليه، وهو القتل إلا أن يدفع الله عزّ وجل،
وأرى لك أن تبعث إلى حبيّ - يعني زوجة الكميّ وهي بنت
نكيف بن عبد الواحد، وهي ممن يتشيع أيضاً - فإذا دخلت إليك
تنقبت نقابها، ولبست ثيابها، وخرجت، فإني أرجو ألا يؤبه لك.

فأرسل الكميّ إلى أبي وضّاح حبيب بن بديل، وإلى فتیان من
بني عمه من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر،
وشاوره فيه، فسدد رأيه، ثم بعث إلى حبيّ امرأته، فقصّ عليها
القصة، وقال لها: أي ابنة عم إن الوالي لا يقدم عليك، ولا يسلمك
قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له، فألبسته ثيابها وإزارها
وخمرته، وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل فقالت: ما أنكر منك شيئاً إلا
يساً في كتفك فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها،
فخرج، وعلى باب المحبس أبو وضّاح ومعه فتیان من أسد فلم يؤبه
له ومشى الفتیان بين يديه إلى سكة شبيب بناحية الكناس، فمر
بمجلس من مجالس بني تميم، فقال بعضهم: رجل ورب الكعبة،
فأمر غلامه فاتبعه، فصاح به أبو وضّاح: يا كذا وكذا، لا أراك تتبع
هذه المرأة منذ اليوم. وأوماً إليه بنعله، فولّى العبد مديراً، وأدخله
أبو وضّاح منزله.

ولما طال على السجّان الأمر، نادى الكميّ فلم يجبه، فدخل
ليعرف خبره، فصاحت به المرأة وراءك لا أم لك، فشق ثوبه ومضى
صارخاً إلى باب خالد، فأخبره الخبر، فأحضر حبيّ، فقال لها: يا
عدوة الله احتلت على أمير المؤمنين، وأخرجت عدوه، لأمثلن بك،

ولأصنعن ولأفعلن. فاجتمعت بنو أسد إليه، وقالوا: ما سبيلك على امرأة منا خدعت؟ فخافهم فخلى سبيلها.

قال: وسقط غراب على الحائط فنعب. فقال الكميت لأبي وضاح: إني لأمأخوذ وإن حائطك لساقط. فقال له: سبحان الله؟ هذا ما لا يكون إن شاء الله، فقال له: لا بد أن تحولني. فخرج به إلى بني علقمة، وكانوا يتشيعون فأقام فيهم، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب.

هربه إلى الشام:

قال ابن الأعرابي، قال المستهل: وأقام الكميت مدة متوارياً، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه، خرج ليلاً في جماعة من بني أسد، على خوف ووجل، وفيمن معه صاعد غلامه، فأخذ الطريق على القطقطانة، وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها، فلما صار سحيراً صاح بنا: هوموا يا فتیان. فهومنا، وقام يصلي، قال المستهل: فرأيت شخصاً فتضعضت له، فقال: ما لك؟ قلت: أرى شيئاً مقبلاً. فنظر إليه، فقال: هذا ذئب، قد جاء يستعطفكم. فجاء الذئب فربض ناحية، فأطعمناه يد جزور، فترققها، ثم أهوينا بإناء فيه ماء فشرب منه، وارتحلنا، فجعل الذئب يعوي فقال الكميت: ما له ويله؟ ألم نطعمه ونسقه، وما أعرفني بما يريد؟ هو يعلمنا أننا لسنا على الطريق تيامنوا يا فتیان. فتيامنا. فسكن عواؤه فلم نزل نسير حتى جئنا الشام، فتوارى في بني أسد وبني تميم وأرسل إلى أشراف قريش، وكان سيدهم يومئذ عنبة بن سعيد بن العاص. فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض، وأتوا عنبة فقالوا: يا أبا خالد، هذه مكرمة قد

أنك الله بها. هذا الكميت بن زيد لسان مضر. وكان أمير المؤمنين كتب في قتله، فنجاً حتى تخلص إليك وإلينا. قال: فمروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام بدير حنيناء، فمضى الكميت فضرب فسطاطه عند قبره، ومضى عنبة فأتى مسلمة بن هشام، فقال له: يا أبا شاعر، مكرمة أنتك، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها، فإن علمت أنك تفي بها، وإلا كتمتها. قال: وما هي؟ فأخبره الخبر، وقال: إنه قد مدحكم عامة، وإياك خاصة، بما لم يسمع بمثله، فقال عليّ خلاصه. فدخل على أبيه هشام، وهو عند أمه، في غير وقت دخول، فقال له هشام: أجئت لحاجة؟ قال: نعم. قال: هي مقضية إلا أن يكون الكميت. فقال: ما أحب أن تسني عليّ في حاجتي، وما أنا والكميت؟ فقالت أمه: والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت. قال: قد قضيتها، ولو أحاطت بما بين قطريها. قال: هي الكميت يا أمير المؤمنين. وهو آمن بأمان الله عزّ وجل، وأمانى وهو شاعر مضر، وقد قال فينا قولاً لم يقل. قال: قد أمتته، وأجزت أمانك له، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا. فقعده له، وعنده الأبرش الكلبي، فتكلم بخطبة ارتجلها، ما سمع بمثله قط، ومدحه بقصيدته الرائية، ويقال إنه ارتجلها ارتجالاً وهي قوله:

قف بالديار وقوف زائر

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله:

ماذا عليك من الوقو

ف بها وإنك غير صاغر

درجنت عليك الغاديات

ت الرائحات من الأعاصر

وفيهما يقول:

فـالآن صـررت إلـى أـميت
سـة والأـمور إلـى المصـايـر

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده، فيقول: اسمع،
اسمع. ثم استأذنه في مرثية ابنه معاوية، فأذن له، فأنشده:
سأبكيك للدينيا وللدين إنني
رأيت يد المعروف بعدك شلت
أدامت عليك بالسلام تحية
ملائكة الله الكرام وصلت

فبكى هشام بكاءً شديداً، فوثب الحاجب فسكته، ثم جاء
الكميت إلى منزله آمناً، فحشدت له المضربة بالهدايا، وأمر له
مسلمة بعشرين ألف درهم، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم.
وكتب إلى خالد بأمانه، وأمان أهل بيته، وأنه لا سلطان له عليهم،
وجمعت له بنو أمية فيما بينها مالا كثيراً ثم ودّع هشاماً، وأنشده
قوله فيه:

ذكر القلب إلفه المذكورا
وتلافى من الشباب أخيرا

وهذه أولى الروايات فيما كان من المنافرة بين الكميت وخالد بن

عبد الله القسري وفيما انتهى إليه أمره مع بني مروان بسبب قصائده
الهاشميات.

الرواية الثانية: وأما في هذه الرواية فإن سبب المنافرة بين
الكميت وخالد، فقد نقلها أبو الفرج من كتاب محمد بن يحيى
الخراز، قال حدثني أحمد بن إبراهيم الحاسب قال حدثني
عبد الرحمن بن داود بن أبي أمية البلخي، قال: كان حكيم بن عيَّاش
الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تجيبه ويجيبهم،
وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم. قالوا: فأجب الرجل،
قال: إن خالداً بن عبد الله محسن إلي، فلا أقدر أن أردّ عليه. قالوا:
فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء.
فأنشدوه ذلك فحمي الكميت لعشيرته فقال المذبة:

أَلَا حُيِّتَ عَنَّا يَا مَدِينَا

فأحسن فيها، وبلغ خالداً خبرها، فقال: لا أبالي ما لم يجر
لعشيرتي ذكر. فأنشدوه قوله:

وَمِنْ عَجَبٍ عَلَيَّ لَعْمُ رُأْمٍ

غَدْتُكَ وَغَيْرَهَا تَيْيَمِينَا

تَجَاوَزَتِ الْمِيَاهُ بِلَا دَلِيلٍ

وَلَا عَلِمَ تَعَسُفَ مَخْطِئِنَا

فَإِنَّكَ وَالتَّحْوِيلُ مِنْ مَعْدٍ

كَهَيْلَةٍ قَبْلَنَا وَالْحَالِ بَيْنَنَا

تخطت خيرهم حلياً ونسأاً
إلى المولى المفادر هاريننا^(١)
كعنز السوء تنطح عالفها
وترميها عصي الذابحيننا

فبلغ ذلك خالدًا، فقال: فعلها! والله لأقتله. ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية في الحسن والكمال والأدب فرواهن الهاشميات، ودسهن إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة وأدباً فاستقرأهن القرآن فقرأن، واستشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن، من قاتل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي. قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق، ثم بالكوفة.

فكتب إلى خالد: ابعث إلي برأس الكميت بن زيد. فبعث خالد إلى الكميت في الليل. فأخذه وأودعه السجن. ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام، واعتذر إليهم من قتله، وأذنهم في إنفاذ الأمر فيه في الغد. ثم قال لأبان بن الوليد البجلي، وكان صديقاً للكميت: انظر ما ورد في صديقك. فقال: عز عليّ والله ما به. ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره فتوجه إلى امرأته. ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه وهربه إلى الشام كما في الرواية الأولى، إلى أن قال: فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به. فقال: إني أخشى ألا ينفعك جوارى عنده، ولكن استجر بابنه مسلمة بن

(١) النسيء والنسيء: اللبن الرقيق الكثير الماء. وفي التهذيب: الممدوق بالماء. ونسأته نسأ ونسأته إياه: خلطته له بماء (اللسان مادة نسأ ١/١٦٩).

هشام. فقال: كن أنت السفير بيني وبينه في ذلك. ففعل مسلمة. وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر، واعتقاد الصنيعة في مضر، وأخبره الخبر. فأجاره مسلمة بن هشام، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به. ثم قال: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره؟ فقال: كلا ولكني انتظرت سكون غضبه. قال: أحضرني الساعة، فإنه لا جوار لك. فقال مسلمة للكميت: إن أمير المؤمنين أمرني بإحضارك. قال: أئسلمني يا أبا شاكراً؟ قال: كلا، ولكني احتال لك. ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك ببنيه يكونون معك في الرواق. فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشباك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره.

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر. فقال: من هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر. فقال: يجار من كان إلا الكميث فإنه لا جوار له. فقبل: فإنه الكميث. قال: يحضر أعنف إحضار. فلما دعي به ربط الصبيان ثيابهم بشيابه، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر، وهم يقولون: يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة له ولنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به. فبكى هشام حتى انتحب، ثم أقبل على الكميث وقال له: يا كميث أنت القائل:

وإن لا تقولوا غيرهما تتعرفوا
نواصيها تردى بنا وهي سُزْبُ

فقال: لا والله، ولا أتان من أتن الحجاز وحشية. فحمد الله

وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال:

أما بعد: فإني كنت أتهدى في غمرة، وأعوم في بحر غواية.
أخنى عليّ خطلها، واستفزني وهلهاء فتجبرت في الضلالة،
وتسكمت في الجهالة مهرعاً عن الحق، جانثراً عن القصد، أقول
الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالألأ، وهذا مقام العائذ، مبصر
الهدى، ورافض العماية، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة
بالتوبة، واصفح عن الزلة، واعف عن الجُرْمة ثم قال:

كـم قـال قـائلـكـم لـعـاً
لـك عـنـد عـشـرتـه لـعـائـر
وغـفـرتـم لـذوي الذنـو
ب مـن الأكـابـر والأصـاغـر
أبـنـي أمـيـة إنـكـم
أهـل الوـسـائـل والأوامـر
ثقتـي لـكـل مـلـمـة
وعشـيرتـي دون العـشـائـر
أنـتـم معـادن للـخـيـلـا
فـة كـابـرأ مـن بـعد كـابـر
بـالتـسـعـيـة المـتـبـاعـيـة
مـن خـلافـاً وبخـير عـاشـر^(١)
وإلـى القـيـامـة لا تـزـا
ل لـشـافـع مـنـكـم وواتـر

(١) وهنا قصد الكميث هشام بن عبد الملك.

ثم قطع الإنشاد، وعاد إلى خطبته، فقال: إغضاء أمير المؤمنين
وسماحته وصباحته. مناط المتجمعين بحبله، من لا تحل حبوته
لإساءة المذنبين فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين.

- فقال له: ويلك يا كميث. من زين لك الغواية؟ ودلاك في
العماية؟

- قال: الذي أخرج أبانا من الجنة، وأنساه العهد فلم يجد له
عزماً.

- فقال: إيه! أنت القائل:

يا موقداً ناراً لغيرك ضوءها
ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

- فقال: بل أنا القائل:

إلى آل بيت أبي مالك
من أخ هو الأرحب الأسهل
نمت بأرحامنا الدأخلا
ت من حيث لا ينكر المدخل
بيرة والنضر والمالك
ن رهط هم الأنبل الأنبل
وبابني خزيمة بدر السما
ء والشمس مفتاح ما نامل
وجدنا قريشاً قريش البطا
ح على ما بنى الأول الأول

بهم صلح الناس بعد الفساد
وحيص من الفتق ما رعلوا^(١)

- قال له : أنت القاتل :

لا كعبد المليك أو كوليـد
أو سليمـان بعد أو كهشام
من يمت لا يمت فقيراً ومن يحـ
بي فلا ذو إل ولا ذو ذمام^(٢)

ويلك يا كميـت جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة .

- فقال ، بل أنا القاتل يا أمير المؤمنين :

فـالآن صـرت إلـى أميـة
ة والأمور إلى المصايـر
والآن صـرت بهـا المصـيـد
ب كمهتـد بالأمس حائر
يا بن العقائل للعقبا
ئل والجحاجحة الأخايـر^(٣)
من عبـد شمـس والأكـا
بر من أمية فالأكابر

(١) حيص : أصلح . ورعل الثوب : مزقه .

(٢) الال : العهد . والذمام : الحق والحرمة .

(٣) الجحاجحة : جمع جحاجح ، وهو السيد العظيم .

إِنَّ الْخُلَافَةَ وَالْإِلَاحَةَ

فَ بَرَّغَمَ ذِي حَسَدٍ وَوَاغَرَّ
دَلْفًا مِّنَ الشَّرَفِ التَّلِيدِ
إِلَيْكَ بِالسَّرْفِ الْمَوَافِرِ
فَحَلَلْتُ مَعْتَلَجَ الْبَطَالِ
حَ وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالْظُّوَاهِرِ

- قال له : فأنت القائل :

فَقُلْ لِبَنِي أُمَيَّةٍ حَيْثُ حَلَّوْا
وَإِنْ خَفَّتِ الْمَهْنَدُ وَالْقَطِيعَا^(١)
أَجَاعَ اللَّهُ مِّنْ أَشْبَعْتُمُوهُ
وَأَشْبَعَ مِّنْ بَجُورِكُمْ أَجِيعَا
بِمَرْضِيَّ السِّيَاسَةِ هَاشِمِيَّ
يَكُونُ حَيًّا لَأَمْتِهِ رِيعَا

- فقال : لا تثريب يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تمحو عني
قولي الكاذب.
- قال : بماذا؟

(١) القطيع : السوط يقطع من جلد سير ويعمل منه . وقال الأزهري : سمي السوط
قطيعا لأنهم يأخذون القد المحرم فيقطعونه أربعة سيور . ثم يفتلونه ويلوونه
ويتركونه حتى يبس فيقوم قياما كأنه عصا . وسمي قطيعا لأنه يقطع أربع
طاقات ثم يلوى (اللسان مادة قطع) (٢٨٢ / ٨) .

- قال: بقولي الصادق:

أورثته الحصان أم هشام
حسباً ثاقباً ووجهاً نضيراً
وتعاطى به ابن عائشة البد
رفاً مسمى له رقيباً نظيراً
وكساه أبو الخلائف مروا
ن سنّي المكارم المائثورا
لم تجهّم له البطاح ولكن
وجدته له مغاراً ودورا

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً، وقال: هكذا فليكن الشعر -
يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر، وكان إلى جانبه - ثم قال: رضيت
عنك يا كميث فقبل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد
في تشريفي، ولا تجعل لخالد عليّ إمارة. قال: قد فعلت. وكتب له
بذلك، وأمر له بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً هشامية، وكتب إلى
خالد أن يخلي سبيل امرأته ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ففعل
ذلك.

الرواية الثالثة: وأما الرواية الثالثة فرواها أبو الفرج أيضاً، قال:
أخبرني أحمد بن عبد الله بن عمار، قال حدثنا النوفلي علي بن
محمد بن سليمان أبو الحسن، قال حدثني أبي. قال: كان هشام بن
عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله، وكان يقال له إنه يريد خلعتك،
فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر، فدخل بها على هشام فقرئت
عليه وهي:

- تألق برق عندنا وتقابلت
 أناف لقدر الحرب أخشى اقتبالها^(١)
 فدونك قدر الحرب وهي مقرة
 لكفيك واجعل دون قدر جمالها^(٢)
 ولن تنتهي أو يبلغ الأمر حدّه
 فنلها برسل قبل ألا تنالها^(٣)
 فتجشم منها ما جشمت من التي
 بسوراء هزّت نحو حالك حالها^(٤)
 تلاف أمور الناس قبل تفاقم
 بعقدة حزم لا تخاف انحلالها
 فما أبرم الأقسام يوماً لحيلة
 من الأمر إلا قلدوك احتيالها
 وقد تخبر الحرب العوان بسرّها
 - وإن لم تبع - من لا يريد سؤالها^(٥)

-
- (١) الأنافي: الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها واحدها أثفية. (أنف ٣/٩ اللسان).
- (٢) الجعالة: خرقه تنزل بها القدر.
- (٣) الرسل والرسلة: الرفق والتؤدة.
- (٤) سوراء: موضع يقال هو إلى جنب بغداد. وقبل هو بغداد نفسها. وقال الأديبي سوراء موضع بالجزيرة. معجم البلدان الحموي ٢٧٨/٣. هزّت: صوتت.
- (٥) الحرب العوان: هي الحرب التي قوتل فيها مرة بعد الأخرى كأنهم جعلوا الأولى بكراً. وحرب عوان: كان قبلها حرب. اللسان مادة عون ٢٩٩/١٣.

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة، فجمعوا، فأمر
بالآيات فقرئت عليهم. فقال: شعر من تشبه هذه الآيات؟ فأجمعوا
جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام:
نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله. ثم كتب إلى خالد بخبره.
وكتب إليه بالآيات، وخالد يومئذ بواسط، فكتب خالد إلى واليه
بالكوفة، يأمره بأخذ الكميت وحبه، وقال لأصحابه: إنه بلغني أن
هذا يمدح بني هاشم، ويهجو بني أمية، فأتوني من شعره هذا بشيء
فأتوه بقصيدته اللامية التي أولها:

ألا هل عمم في رأيه متأمل
وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت
فإن كان قد صدق في هذا، فقد صدق في ذاك.

فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:
فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم
ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول

اشتد غيظه. فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه،
ويضرب عنقه، ويهدم داره، ويصلبه على ترابها، فلما قرأ خالد الكتاب،
كره أن يستفد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت. فقال:
لقد كتب إليّ أمير المؤمنين، وإنني لأكره أن أستفد عشيرته، وسمّاه،

فعرف عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة^(١) من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس، فأنت حر لوجه الله، والبغلة لك. ولك عليّ بعد ذلك إكرامك والإحسان إليك. فركب البغلة، وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة، فصباحها فدخل الحبس متنكراً، فخير الكميت بالقصة. فأرسل إلى امرأته وهي ابنة عمه، يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان، ففعلت فقال: البسني لبسة النساء. ففعلت فخرج فمر بالسجان فظن أنه المرأة، فلم يعرض له، فنجأ، وأنشأ يقول:

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل
على الرغم من تلك النوايح والمثلي
عليّ ثياب الغانيات وتحتها
عزيمة أمرٍ أشبهت سلة النصل

وورد كتاب خالد على والي الكوفة، يأمره فيه بما كتب به إليه هشام فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس، فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت^(٢)، فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها في البيت، وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حرة كريمة، آست ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها. فبلغ الخبر الأعور الكلبي

(١) بغلة فارهة: أي نشيطة ولا يقال للفرس فاره إنما يقال في البغل والحمار والكلب. وأما الفرس فيقال له جواد رائع.

(٢) البيت: هنا حجرة السجن.

بالشام فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس،
ويقول:

فما وجدت بنات بني نزار
حلائل أسودين واحمرينا^(١)

فهاج الكميت ذلك حتى قال:
* ألا حُيت عنا يا مدينا *

وهي ثلاثمائة بيت لم يترك حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم
وتوارى وطلب، فمضى إلى الشام. فقال شعره الذي يقول فيه:
* قف بالديار وقوف زائر *

ويقول:

يا مسلم بن أبي الوليد
— دلميت إن شئت ناشر
اليوم صـرت إلى أمي
— والأمر إلى المصاير

فأذن له ليلاً فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إني إن أجرت
على أمير المؤمنين فأخفر جوارى، ولكني أدلك، فاستجر بمسلمة بن
هشام، وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادي ٨٦/١.

رشحه لولاية العهد. فقال الكميت: بشس الرأي، أضيع دمي بين صبي وامرأة! فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية ابن أمير المؤمنين، وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره في كل أسبوع يوماً - وسمى يوماً بعينه - وهو يزوره في ذلك اليوم فامض فاضرب بناءك عند قبره، واستجر به، فلنني سأحضر معه، وأكلمه بأكثر من الجوار.

ففعل ذلك الكميت في اليوم الذي يأتيه فيه أبوه، فجاء هشام ومعه مسلمة فنظر إلى البناء، فقال لبعض أعوانه: انظر ما هذا؟ فرجع فقال: الكميت بن زيد، مستجير بقبر معاوية ابن أمير المؤمنين. فأمر بقتله، فكلمه مسلمة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن إخفار الأموات عار على الأحياء، فلم يزل يعظم عليه الأمر حتى أجاره.

وجوه اضطراب الروايات:

وهذه الروايات الثلاث التي رواها أبو الفرج في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله، وهي روايات مضطربة ومتعارضة في أمور كثيرة. وكان على أبي الفرج أن يبين لنا ما هو الراجح في ذلك التعارض ولكنه لم يكن يعنى في الأكثر بنقد رواياته، إنما كان يهتم الجمع والتفصيل أكثر من النقد.

فمن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى تصرّح بسبب المنافرة بينهما قصيدة الكميت في هجاء اليمن:

* ألا حييت عنا يا مدينا *

وقد صرحت بذلك الرواية الثانية أيضاً على خلاف قليل بينهما، أما الرواية الثالثة فتصرّح بأن سبب المنافرة بينهما شعر الكميت في تحريض هشام على خالد، لا قصيدته في هجاء اليمن، لأنها وردت في هذه الرواية متأخرة عن سجن الكميت، وقد قالها الكميت في هذه الرواية رداً على الأعور الكلبي في قصيدته التي يرمي فيها امرأته بأهل الحبس.

- ومن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى تصرّح بأن خالداً روى الهاشميات جارية واحدة، وأن الرواية الثانية بأنه رواها ثلاثين جارية.

- ومن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى تصرّح بأن أبان بن الوليد البجلي عامل واسط هو الذي سمى في تهريب الكميت من السجن، أما الرواية الثالثة فتصرّح بأن الذي سمى في ذلك هو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد.

- ومن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى ظاهرة في أن خالداً كان بالكوفة حينما أمر بسجن الكميت، أما الرواية الثالثة فصريحة في أن خالداً كان بواسط حينما أمر بذلك، وأن أمره به كان إلى واليه بالكوفة.

وأوجه الاضطراب كثيرة اقتصرنا على هذا القدر اليسير ومن شاء فليراجع كتاب «الكميت بن زيد» لعبد المتعال الصعيدي. فلا شك أنك عزيزي القارئ واجد ما تصبو إليه.

موته ووصيته:

مات الكميت في سنة ست وعشرين ومائة في خلافة مروان بن

محمد^(١)، وكان مبلغ شعره حين مات خمسة آلاف ومائتين وتسعة
وثمانين بيتاً.

وقال يعقوب بن إسرائيل في رواية عمي خاصة عنه: حدثت
المستهل بن الكميت أنه قال: حضرت أبي عند الموت وهو يجود
بنفسه، ثم أفاق ففتح عينيه، ثم قال: - اللهم آل محمد، اللهم آل
محمد، اللهم آل محمد - ثلاثاً. ثم قال لي: يا بني وددت أني لم
أكن هجوت نساء بني كلب بهذا البيت:

مع العضروط والعسفاء ألقوا

برادعهن غير محصّيناً^(٢)

فعممتهن قذفاً بالفجور، والله ما خرجت بليل قط إلا خشيت أن
أرمى بنجوم السماء لذلك. ثم قال: يا بني إنه بلغني في الروايات أنه
يحفّر بظهر الكوفة خندق يخرج فيه الموتى من قبورهم وينبشون
منها، فيحولون إلى قبورٍ غير قبورهم، فلا تدفني في الظهر، ولكن

(١) هو مروان بن محمد بن الحكم أبو عبد الملك، ويعرف بالجمعي وبالحمار،
آخر ملوك بني أمية في الشام. ولد بالجزيرة وأبوه متوليها. ولأه هشام بن
عبد الملك على أذربيجان وأرمينية والجزيرة (سنة ١١٤ هـ). استولى على
عرش بني مروان (١٢٧ هـ) وفي أيامه قويت الدعوة العباسية. (توفي سنة
١٣٢ هـ)، الأعلام ٢٠٨/٧.

(٢) العضروط: الخادم على طعام بطنه. والعسيف: الأجير. والبرادع والبراذع:
واحدة بردعة وبرذعة: كساء يلقي على ظهر الدابة.

إذا مت فامضى بي إلى موضع يقال له مكران^(١) ، فادفني فيه .

فدفن في ذلك الموضع وكان أول من دفن فيه ، وهي مقبرة بني
أسد إلى الساعة . قال المستهل : ومات أبي في خلافة مروان بن
محمد في سنة ست وعشرين ومائة .

(١) مكران : موضع في بلاد العرب . قال الشاعر :

كَانَ رَاعِيْنَا يَحْدُو بِنَا حِمْرًا
بَيْنَ الْأَبَارِقِ مِنْ مَكْرَانَ فَالْأُوبِ
فَإِنْ تَقَرَّرِي بِهَا عَيْنًا وَتَخْتَضِي
فِيْنَا وَتَنْتَظِرِي كَرِّي وَتَقْرِي

انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ١٨٠ / ٥ .

الفصل الرابع

اغراضه الشعرية:

لقد امتدح شعر الكميت لفوائده العلمية والتاريخية واللفوية والفوائد والنوادر، وهي هم أهل المعاجم واللغة والنسب والنحو. وقال ابن عبدة النساب:

«ما عرف النسّاب أنساب العرب على حقيقة حتى قال الكميت
النزاريات فأظهر علماً كثيراً ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً
أعلم منه بالعرب وأيامها»^(١).

وقال السكوني: «جمعت شعره فكان عونى على التصنيف لأيام
العرب» ويقول أبو عكرمة الضبي: «لولا شعر الكميت لم يكن للغة

(١) انظر كتاب معجم الأدباء ٨/٣ طبعة دار المأمون د. ت.

ترجمان، ولا للبيان لسان^(١). واعتبر أبي عبيدة الكميّ مفعرة بني أسد يكفيهم به فخراً. وكانوا يفخرون به كافتخار الأمم بعظماؤها وقوادها وأبطالها.

ويمكننا بعد هذه النبرة أن نستعرض شعره والأغراض التي عالجها. ومن السهولة على أي قارئ أن يدرك أن المدح، والرثاء، والهجاء، هي من بين الأغراض التي طرفها الشاعر وقال القدامى فيها رأيهم، ويمكن الافتراض أن أكثر هذه الأغراض هو شعر المدح، ويليه الرثاء، فالهجاء. أما في هذه الدراسة نريد أن نبحت في غير هذه الأغراض ونبحت فيما أهمله القدامى من أغراض شعر الكميّ الأخرى؛ لأنها في الواقع هي سبب من الأسباب الرئيسة التي فرضت شخصية الشاعر على الأدباء ومؤرخي الأدب.

١ - الوصف:

لعل شعر الوصف من أجمل أشعار الكميّ وأكثرها دقة وعنفاً وتأثيراً في النفس، وهو قد وفق مع الحيوان واصفاً له، ومحللاً لدوافعه الغريزية أكثر مما وفق على تحليل نفسية أي خليفة أو أمير أو أية شخصية إنسانية، فهو قد استجاب للطبيعة أكثر من استجابته للحياة المدنية، ووصف الحيوان أكثر مما وصف من أخلاق الناس، ممن حوله، فحبه للحيوان جعل ملاحظته دقيقة، ووصفه للحيوان يجعل الاستجابة لهذا الشعر أكثر عمقاً، من استجابته لشعر المدح الرسمي ولما فيه من مواقف النفاق والتكلف والصنعة. وهو قد

(١) انظر كتاب شرح شواهد المغني للسيوطي ٣٧.

وصف الحيوان من ناحيتين :

الأولى : وصف نفسيته ورفعه إلى مستوى العبرة والتأمل في حياته وظروفه، على أن ما فيهما ما يماثل حياة وظروف الإنسان. ويمكن استنباط الشاهد والمثل منها. ولعل هذا هو أجود أشعار الوصف للطبيعة عنده.

الثانية : الوصف الخارجي للحيوان أو بيئته وهيبته، والغريب أن شعر الوصف للحيوان في شعر الكميت أبين وأوضح من وصفه للنبات. والتعليل لذلك أنه عاش أكثر حياته في بيئة صحراوية أو شبه صحراوية يفتقد فيها الشجر والنبات ولا يفتقد فيها الحيوان. وبذلك يكون قد صدر صدوراً طبعياً بدون تكلف أو تعمل، واستجاب للبيئة التي يحياها دون أن يتعمد ابتكار تجارب خاصة أو يَمُوّه إحساسه.

وهو في وصفه للحيوان قد كان ينفذ إلى أعماق مشاعره الغريزية، وتمكّن من استحداث العطف والشفقة لأشد هذه الحيوانات ضراوة في حالات ضعفها.

فهو يصف هنا ذئباً لقيه في سفره في الصحراء وكان الذئب كبير السن ضعيفاً :

لقينا بها ثلباً ضريراً كأنه

إلى كل من لاقى في الناس مذنب

مضيعاً إذا أثرى كسوباً إذا عدا

لساعته ما يستفيد ويكسب

تضور، يشكو ما به من خصاصة
وكاد من الإفصاح بالشكو يعرب

فهو قد صوّر هذا الحيوان في حالتي قوته وضعفه وصوّر سلوكه
في هاتين الحالتين خير تصوير .

ويصوّر في النص التالي شعور البدوي في الصحراء إزاء كل ذي
حياة أيام المجاعة والحاجة الداعية لحفظ الروح إزاء الطبيعة القاسية،
وتكاتف الإنسان والحيوان في سبيل البقاء:

بنائية المناهل ذات غول
لسرحان الفلاة بها ضييب
يراني في الطعام له صديقاً
وشاذنة العبابر رعبليب
إذا اشتكيا إلي رأيت حقاً
لمحرومين شفهما السفوب

وهو كثيراً ما يستخدم هذه الصور النفسية لحيوان البيئة
الصحراوية على سبيل تشبيه الصورة، أو التشبيه المركّب الذي يسمّيه
الأوروبيون بالتشبيه الهويروسي^(١) .

فهو يقارن بين وضع قضاة وهي تنتفي من نسبها القديم وتتحول

إلى نسبها الجديد، ويشبّها بفرخ النعام يكون ضعيفاً حين يتفلق عنه
قيض البيضة.

وسرعان ما يقوى وتترك أقدامه التي بدأت تشتد وتقوى أثرها
على الرمل كأنه الودع. وهنا يبدأ يعادي أبويه اللذين عاركا في سبيله
الذئب وكل مفترس في الصحراء ثم يفارقهما. وهذه هي سنة الحياة:
أولى وأولسى له حسنى وسينة

تبالى الهيق والمكلوء ذي الزغب
لما تفلق عنه قيض بيضته

آواه في ضبن مضبوء به نصب
وان تعرض محتس الذئاب له

أوفى بأولق ذي الزبونة الحرب
حتى إذا علم التدارج واتخذت

رجلاه كالودع آثاراً على الكشب
وخاله ضد من قد كان يكلؤه

بالأمس إن الهوى داع إلى الشجب
ولّى مباعدة منه ومزريّة

من غير مزري به والحين ذو سبب

وهو في تسجيل أطباع الحيوان ونفسيته كأنه صوّر عن قرب
وملاحظة دقيقة لأطباعها وبيئتها وظروفها، فهو يصوّر اللوعة والهم
والألم في رعاية الغطية لولدها الضعيف. تخرج مبكرة لتعلا له
أوطابها لبناً ويبقى هو في كناسة، ولكن الأم تقلق لغفلة وجهل
وحماقة صغيرها وتغفل الذئب له:

تحنو على خدر القيام وترعوي
بغناه في سمح الوعاء معلق
بكرت وأصبح في المبيت يؤودها
لوث المغفل واعتناق الأخرق

وهذه هي صورة أخرى لشك الكلب في أن يكون الفارس
المدرع - الذي وضع على رأسه البيضة وغطى وجهه - صاحبه الذي
يقدم له الطعام فيدخل ذيله بين رجليه ويتحفز:
واستشعر الكلب انكاراً لمولغته
في حولة قصرت عن نعتها الحول

وقد حاول الكميت أن يعطي لقطات ثابتة ومتحركة لصور
الحيوان الصحراوي. فهو يسجل تقاطيع النوق التي أضناها النظر في
الهجرة. فبدت كأنها غائرة العيون:
كأن عيونهن من مهججات
إذار راحت من الأصل المرور

وصور الناقة العشواء وما تثيره بين الصخور من الزواحف:
دع خبط عشواء في ليلاء مظلمة
هاجت أفاعي رقتاً بين أحجار

واهتم الكميت بوصف الحمار الوحشي والثور الوحشي، وهو في
ظروفه الخاصة في حالة اصطياده أو في حالة رعيه تحت الشمس

وتسمع أصوات الفراعيل حوله
يعاوين أصوات الذئاب الهفالس

- وقال في صوت الطير :
تغريد ساق على ساق تجاوبها
من الهواتف ذات الطوق والعطل

- ووصف غير الناقة، والحمار الوحشين! فقد لاحظ كل شيء
حوله في بيته. فهذا قطار نمل يتحرك :
وأنفذ النمل بالصرائم ما
جمع الحباطيون وانتشروا

- وهذه صورة الخيول في المعركة حالة نشاطها واستعدادها
للهجوم :
ومستلزمات دارعات تشبهت
بفرسانها في الحرب ليس لها ذعر
يخضن غمار الموت من غير ذلة
تخال بهاسكراً وليس بهاسكر

- وهذه صورة لنانة معذبة عقرها وغادرها تنتحب وتقطع
أوصالها :
فأدرتهاا تجبوا عقيراً ونششوا
حقيتها يبين التوزع والتتر

- ولاحظ الشاعر الجليل والقوي من الحيوان كما لاحظ الصغير
والضعيف ونظر إلى أعالي الشجر وقمم الجبال كما نظر في أفاحيص
القط ووصف فراخها:

كل صاد كأن بالجلد منه
حصفاً أو تخالسه مجدورا

وهو إذ وصف حيواناً وبيته فقد وصف مناخها وظروفها في
حالتي بردها وحرها ووصف أيام المحل وأيام كثيرة الخير، وإقبال
الربيع وتجدد الحياة وامتلاء الأعشاش بالفراخ.

ولاحظ ما يعترى سلوك الإنسان من تأقلم عند تغير البيئة فقد
يتحول الكريم بخيلاً إلا ما ندر أيام المحل ويصبح الشبع أملاً:
وفي السنة الجماد يكون غيثاً

إذا لم تعط درتها الغضوب
وكان السوف للفتيان قوتاً
تعيش به وهيئت الرقوب
وصار وقودهم للحوي أما
وهان على المخبأة الشحوب

وهذه صورة للبيئة القاسية وللصحراء وأهلها أيام البرد والمجاعة
فالإنسان يزداد بخلاً ويحاول الصرد أن ينال الدفء بالتفخ في يده
ويحاول الكلب الالتصاق بكل ما يعطيه الدفء والحرارة:

إذا اللقاح غدت ملقى أصرتها
ولم تند عصوب كف متعصب

وجاءت الريح من تلقاء مغربها
وضمن من قدره ذو القدر بالعقب
وكهكه المدلج المقرور في يده
واستدفا الكلب المأسور ذي الذئب

وقال:

إذا التفت دون الفتاة الضجيع
ووحجوج ذو الفروة المرمـل

وهو إذا وصف هذه الأجواء القاسية ووصف الريح والبرد
والحيوان والإنسان الذي يحاول أن يتغلب على هذا الجو بالالتفاف
بالمرأة أو الفروة أو النار أو النفخ في اليد فهو قد وصف لنا كذلك
الصحراء في الصيف الحار، إذ تكاد الحرارة تصهر الصخور وتخلو
الأرض الفضاء من الناس فكانها لا يسكنها إلا الجن:
وخرق تعزف الجنان فيه

لافتدة الكمأة لها وجيب
قطعت ظلام ليلته ويوماً
يكاد حضن الآكام به يذوب
ويصف شعاع الشمس الذي كأنه يذوب معدناً أو لعباً يسيل من هذه
الكرة الملتهبة على الأرض:

يصافحن خد الشمس كل ظهيرة
إذا الشمس فوق اليد ذاب لعبها

وهو إذا وصف الصحراء في النهار فقد وصفها في الليل ووصف
وحشيتها:

ودوية أنفذت حضن ظلامها

هدوا إذا طائر الليل أبصرا

وللكميت إحساس باللون عميق خاصة عند التبدل وذهاب الشتاء
وجلال الربيع وإزهار النبات واشتداد حركة الطير مرة أخرى. فهي هو
يصف تلاً مرتفعة نبت فيها زهر الربيع وزقزقت الأفراخ في وكورها:
إذا ما القف ذو الرحين أبدى

محاسنه وأفرخت الوكور

وقال:

حتى كأن عراض الدار أودية

من التجاويز أو كراس أسفار

ويصف خباء بشكل طائر ملون:

وربطة فتيان كخطاطف ظله

جعلت لها منها خباء ممدا

وليس من السهل احصاء كافة ما تعرض له الكميت بالوصف إلا
أن يبدو الإنسان على كثير من نصوص الديوان، ولكن لا تنتهي من
موضوع الوصف حتى نعرض لبعض صورته المختلفة لتكوين فكرة

ثابتة عن قدرة الكميت على التصوير الحركي، والخارجي، والنفسي،
وتصوير الألوان وهذه صور متفرقة من شعره، فهو يصف القدر:

نصبتا لهم دهماء ذات همائم
طويلاً بأفناء البيوت ركودها
لها موقوفان دانيان وواقف
يخاف اطلاع عليها فيذودها

وتصور أنت عزيزي القاريء هذه القدر واضطراب ما فيها
وفورانها والطباخ وهو يحاول أن يوقف هذا الغليان بتقليل النار أو
سحب ما يعلو من القدر.

- وهذه صورة كريم ضاحك مستند على وسادة ولاحظ حركته
وهو ينهض نفسه ليثني الوسادة:

فأعطى ثم أعطى ثم عدنا
فأعطى ثم عدت له فعادا
مراراً ما أعود إليه إلا
تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

وهذه صورة للشاعر يحدق فيها بشدة خلف ظعن راحل وقد أتعب
نظره إذ ضمهم الآل عن متناول بصره ولك أن تتخيل وقفة هذا الناظر
وحركة يده وهي تغطي عينيه في وهج الشمس:
أثارتهم بصري والآل يرفعهم
حتى أسمدر بطرف العين إقاري

وهذه صورة قوس ينطلق منها سهم على قطيع من الحمر الوحشية:

لم يعب ربها ولا الناس منها
غير إنذارها عليه الحمير
بأهازيج من أغانيها الجش
وأتباعها الزفير الطحيرا

- وأخيراً، هذه صورة الأثافي التقليدية ينقلها في شكل يدل على الخلو والفراغ والإهمال:

إلا ثلاثاً في المقام ما يحولهن ناقلاً
سفع الخدود كأنما نثرت عليهن المكاهل
يشبه الكميت في وصفه الفنان الرسام الذي يحمل أصباغه
والواحه وهو يصور كل ما تقع عيناه عليه، وقد يكرر رسم نفس
الصورة والمنظر ولكن من زوايا مختلفة.

٢ - القائل والحكمة:

يبدو أن الشعر والسن هما المعول الأول والأخير للمحظات التأمل في قصائد الكميت. ولا شك أنه استعان بما بين يديه من شعر الأقدمين في التراث الإسلامي الذي كان عمره حوالي ثلاثة أرباع القرن من المثل العليا والدنيا ومن الخير والشر. ولهذا لا يمكن أن نجد فلسفة خاصة أو شاذة أو جديدة عما كان مألوفاً حتى في زمن الكميت. ولكن هضمه لكل هذا ولكونه في آخر زمن تجمعت فيه تجارب سريعة لبني قومه بعد الإسلام وعصر الفتوحات وما قبلها،

فعرض تجاربه بشكل جديد وجدير وعنيف أحياناً:

ولعل أنضح ما في شعره من التأمل قصيدة جمع فيها عدة حقائق هي خلاصة فلسفته النابعة من العلاقات الاجتماعية السائدة في بيئته . وفيها تمجيد للحلم والعقل والإفادة من التجربة والطاعة المستوجبة لذوي الرأي، فهو ينقل لنا بدقة بعض صور الحياة الاجتماعية في عصره، ويؤرخ إن صح التعبير الحياة العقلية وما استهدف في مجتمعه من العادات والتقاليد ويصورها بدقة بالغة :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها

بطول ولا الأحداث تغنى خطوبها

ولا عبر الأيام يعرف بعضها

بعض من الأقوام إلا لبيها

ولم أر قول المرء إلا كنبه

به وله محرومها ومصيبها

وما غبن الأقوام مثل عقولهم

ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها

وما غبن الأقوام عن مثل خطه

تغيب عنها يوم قيلت أريها

وتفني قول المرء حين لرأيه

وزينة أخلاق الرجال وظوبها

وأجهل جهل القوم ما في عدوهم

وأقبح أخلاق الرجال غريبها

رايت ثياب الحلم وهي مكنة

لذي الحلم يعرى وهو كاس سلبها

ولم أر باب الشر سهلاً لأهله
ولا طرق المعروف وعثا كثيها
وأكثر مأتى المرء من مطمأنه
وأكثر أسباب الرجال كذوبها
ولكن صبراً عن أخ لك ضائر
عزاء إذا ما النفس حنَّ طروبها
رأيت عذاب الماء إن حيل دونه
كفاك لمالاً بد منه شريبها
وإن لم يكن إلا الأسنة مركب
فلا رأي للمحمول إلا ركوبها

فالأبيات السابقة تكوّن بشكل خاص فلسفته وربما خلاصة فلسفة
بيته البدوية التي يسود فيها ذور الرأي الذين يرون التلبث والتصبر
حتى لا يجد المرء مناصاً لاستعمال القوة للدفاع عن نفسه أو عن رأيه
إذا أجبر على ذلك دون اللجوء إلى النظام أو القانون.

ويسجل تجاربه الأخرى وعلاقته مع الناس في حالات متفاوتة
فيها الفكرة بين الرقي والإسفاف، وهنا يقول الكميّ:
وقد يخذل المولى دعائي ويجتدي
أذاتي وإن يعدل به الضيم أغضب
فأونس من، بعض الصديق ملاله الد
نرفأستبقهم بالتجنب

فهو إذ يظهر استقلالاً في تفكيره أحياناً قد يحدثك حديث البادية وسلوك أهل البدو فيقول:

لعمري لقوم المرء خير بقية
عليه وإن عالوا به كل مركب
إذا كنت في قوم عدى لست منهم
فكل ما علفت من خيث وطيب
وإن حدثتك النفس أنك قادر
على ما حوت أيدي الرجال فجرب

وهو قد يخوض في علاقة الناس به وكرههم له وما يحدث بينهم
من أذى ويحاول أن يرفع ذلك إلى مستوى التجربة العامة:
إن يحسدوني فإني لا ألومهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد

وهو يؤكد الحقيقة التالية: إن الناس يقولون أكثر مما يفعلون
فيما يخص الحرب، فكم من مدع بلسانه كاذب الفعل فيها، فيقول:
الناس في الحرب شتى وهي مقبلة
ويستوون إذا ما أدبر القبل
قل بأسهها طب مولية
والعالمون بذئ غدو بها قلل

وحاول أن يؤكد على حقيقة السن وأثره في سلوك المرء . وعاب
على المتصابين لهوهم وعيهم وبكا الشباب كما لم يبك شاعر قبله ،
وهو الذي هيأ هذا الشعر الذي ظهر في العصر العباسي حيث كثر فيه
الحنين لأيام الشباب بعدما كثرت لذائذ الحياة وبدت لعيون شعراء
العصر شيئاً يستحق أن يحياه الإنسان ويتمتع لما يهب من متعه . ولعل
الكثير قد شعر بشيء من ذلك فقال :

والشيب فيه لأهل الرأي موعظة

ومن عيوب الرجال الشيب والغزل

إذا هما اتفقا نصاً فعودهما

إلى التي غبها التوقيع والجزل

وهو إذ يحن للشباب يعرف أنه يبكي شيئاً لن يعود وشيئاً لا

يمكن استرجاعه ، فيقول :

هل للشباب الذي فات من طلب

أم ليس غائبه الماضي بمنقلب

دع البكاء على حافات مطلبه

فالدهر يأتي بأنواع من العجب

ما الشيء بالشيء فانظر في عواقبه

ما إذا هو يوماً غاب لم يؤب

ليت الشبيبة لم تظعن مقفلة

وليت غائبها المألوف لم يغب

من يلبس الشيب يلبس من شيبته

ما لن يعود ومن أثوابه القشب

تذكر الحالم العطشان في وهج
من الودائع ماء المزن في النغب

ثم يذكّرنا بتجاربه في الشيخوخة والشباب فيقول:
وقد لبست من النوعين أردية
شتى وجربت من جدّ ومن لعب

ويتردد هذا الحنين في نصوص أخرى منها قوله في قصيدة:
هل لحال من اقتياض بحال
رب مغبون صفقة غرر آل
أم لشيب علا المفارق بيع
بالشباب المرجل الذيال

ولا نقول شيئاً شاذاً أو غريباً إذا قلنا أن تأملات الكميت أنضج ما
يظهر في عصره، وأنه هيا لهذا النوع من الأدب أن ينمو على أيدي
شعراء العباسيين، وظهر ونضج في شعر البحري^(١) وأبي تمام^(٢)،

(١) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحري (٢٠٦ - ٢٨٤ هـ) شاعر كبير يقال لشعره «سلاسل الذهب» ولد بمنج وتوفي فيها له: ديوان شعر - وكتاب «الحماسة»، الأعلام ١٢١/٨، وفيات الأعيان ١٧٥/٢، المتظم ١١/٦.

(٢) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب (١٨٨ - ٢٣١ هـ) أحد أمراء البيان. ولد في جاسم وتوفي بالموصل. كان =

والشريف الرضي^(١) والمتنبي^(٢)، وغيرهم.

٣ - الغزل التقليدي:

عرض النقاد للغزل الأموي وصنفوه إلى صنفين:

الغزل التقليدي: وافترضوا فيه: التكلف، وموت العاطفة، ودفع التقليد الشعري لتأليفه ونظمه.

والغزل المستقل: وينشطر إلى غزل واقعي أو غزل إباحي، وإلى غزل أفلاطوني تحدد إيجابيته وسلبيته شخصية العاشق ومظهره وبيئة المعشوقة. وهذا هو التقسيم النظري.

وكان الشاعر الذي نظم الشعر (التقليدي) آلة تخلو من كل إحساس ولا يمر بالأزمات النفسية التي قد يتعرض لها الشاعر المختص بالغزل، أو الشخص الذي لا ينظم الشعر أصلاً. وهنا يقول

« فصيحاً حلو الكلام، في شعره قوة وجزالة. له تصانيف منها: «فحول الشعراء» و«ديوان الحماسة»، الأعلام ١٦٥/٢، وفيات الأعيان ١٢١/١.

(١) هو محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٦ هـ) أشهر الطالبيين. مولده ووفاته في بغداد. له «ديوان شعر»، الأعلام ٩٩/٦، وفيات الأعيان ٢/٢، المتظم ٢٧٩/٧، يتيمة الدهر ٢٩٧/٢.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤ هـ). الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. ولد بالكوفة. قتل وهو في طريقه إلى بغداد. له «ديوان شعر». الأعلام ١١٥/١، المتظم ٢٤/٧.

الدكتور داوود سلوم: «... ونتحس تفاهة هذا التقسيم حين نجد العاطفة والانفعال قد يكونا على أشدهما عند الشاعر الذي ينظم الغزل الذي يسمّونه بالتقليدي»^(١).

وضعف العاطفة، أو تهافتها وتفاهتها عند الشاعر المنصرف بكليته إلى الغزل - فهذا عمر بن أبي ربيعة الذي أوقف حياته على الشعر الغزلي، كثيراً ما يخلو شعره من اللوعة ويتحول إلى مجرد صور عارية لامرأة أو انطباعات المرأة عنه، أو قد يتحول إلى تشبيهات لا تفوق تشبيهات من سبقه من الشعراء. وإذا كان التفاضل والغزل هو الإكثار من الغزل أو الانصراف إليه فقط هو المقياس، فقد اخطأنا الطريق - إذن - إلى قلوب الشعراء وانفعالاتهم.

ويتابع الدكتور داوود سلوم تعليله: «... ونحن نقول هذا لأننا نجد في شعر الكميت الرقة، والعاطفة، واللوعة، وأثر الشوق في نفس الشاعر مع الوصف الدقيق لجسد الأنثى. وهذه هي الأركان الأساسية للغزل الجيد الذي نبحت عنه في دواوين الشعراء وعنه نفتش ونريد أن نعرض لنماذج الكميت لنرى أنه في غزله لم يكن أقل من المدرسة الحجازية أثراً وتأثيراً، ولعل لخلق الكميت وحفاظه لدينه ومركزه أثراً في اشتداد هذه الحساسية واللوعة، وقد يكون الحرمان للأسباب الآتية من أكثر العوامل أثراً في هذه الرقة واللفظ والشوق المضغوط بين سطور أشعاره، فهو في وقوفه على الأطلال يفوق كثيراً من الشعراء الذين وقفوا هكذا للذكرى أو للبكاء دون اعتبار وتمييز... فهو أبداً يذكر الفرق بين ماضيه وحاضره، وبين شيخوخته

(١) انظر كتاب شعر الكميت بن زيد الأسدي لداوود سلوم ٥٠/١.

وشبابه، وهو مجبر بحكم تقاليده أن يراعي ما يلاقه كبير السن إذا
تصايى، ويربط بين القديم والحديث^(١) فيقول:

ألم تلمم على الطل المحيل
بغيد وما بكأوك بالطلول
أشيب كالوليد: رسم دار
تائل ما أصم عن السؤل؟؟!

وقال:

ولن يستخير رسوم الديار
لعولته ذو الصبا المعول

وقال:

أبكاك بالعرف المنزل
وما أنت والطلل المحول
وما أنت ويك ورسم الديار
وسنك قد قاربت تكمل

وهو في وقفة من وقفاته يعود إلى الماضي ويتخيل تحمل
الأطعمان ويتمنى:

وقفت على أطلالها وتكاثرت
عليّ همومي فهي تشبه عذالي

(١) نفس المرجع السابق ٥١/١ وما بعدها.

ديار اللواتي سرت فيها عشية
وغادرت قلبي بين حزن وبليال
وما ارتحلت عنا الركائب وحدها
ولكن روحي للركائب تال
ولو أنصفت داست بأخفافها التي
تدوس بها الأحجار لحمي وأوصالي
وكنت أجز الذيل ما بين أهلها
خليع عذار ناعم العيش والبال

وهو إذا أكثر من وصف الطلول والوقوف عليها والتشرب واللوم
لنفسه والتمني لموته، وأن تكون النوق قد داسته وقضى في وقته
ذاك، فقد وصف الشاعر المرأة وأثرها في نفسه فأجاد وأحسن. ومن
نماذج شعره، قوله:

يمشيان مشى قطا البطاح تأودا
قرب البطون رواجح الأكفال
يومين بالحدق القلوب فماترى
إلا صريع هوى بغير نبال
من كل أنسة الحديث حبيبة
ليست بفاحشة ولا متغال
أقصى مذهبها إذا لاقتها
في الشهر بين أسرة وحجال
وتكون ريقها إذا نبهتها
كالشهد أو كسلافة الجريال

ومن هذه الأشعار المختارة في الموضوع قوله:
هل أنت عن طلب الأيفاع منقلب
أم هل يحسن من ذي الشيبة اللعب
وقد رأينا بها حورا منعمة
بيضا تكامل فيها الدل والشنب

٤ - الشعر السياسي:

قبل دراسة شعر الهاشميات يبقى أن نذكر تاريخ تأليفها وتحديد فترة نظمه قدر المستطاع بعدما حملت إلينا كتب الأدب الروايات المختلفة حول تاريخ تأليف الهاشميات. ففي كتاب مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) روايته تدور حول نظم الهاشميات بشكل طرافة قصصية وهي أشبه بمسرحية قصيرة من ذوات المشهد الواحد. انظر صفحة (٩٦) من كتابنا هذا وهذه القصة كما رواها لأول مرة المسعودي كثيراً ما ظهرت تباعاً في كتب التاريخ والأدب. فنجدها في شرح الشواهد للعيني^(١)، وتظهر في شرح شواهد المغني للسيوطي، وفي معاهد التنصيص للعباسي، وفي الكشكول للعالملي، وفي الخزانة للبغدادلي، وفي روضات الجنات للخوانساري، والرواية في حد ذاتها نستخلص منها خطأ بأن الهاشميات أول ما نفت على

(١) انظر خلاصة الذهب المسبوك ١١٧.

لسان الكميّ، والقصة لا تحتاج إلى كثرة الجدل. فهناك مفارقة زمنية واضحة فقد ولّي هشام الخلافة عام ١٠٥ هـ. وولّي خالد القسري العراق في نفس العام ولّا هشام، وفي عام (١١١ هـ) «ظهر سليمان بن كثير الخزاعي وأصحابه بخراسان يدعون إلى بني هاشم». وفي عام (١١٤ هـ) حسب رواية الذهب المسبوك أو عام (١١٧ هـ) حسب رواية اليعقوبي^(١)، مات الباقر، وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي، ولموته قيمة في معرفة نهاية الهاشميات. وفي ١٢٠/١١٩ هـ أخذ خالد بن عبد الله القسري في شبه انقلاب دبره هشام وقبض عليه فيه يوسف بن عمر عند صلاة الصبح في المسجد وعزله ثم سجنه وطالبه بستة وثلاثين ألف درهم^(٢).

وفي عام (١٢١ هـ) خرج زيد بن علي في الكوفة فأخذه يوسف بن عمر فقتله وصلبه ثم حرقه وذراه في الماء والبر وقال يوسف لأنصاره: «والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم»^(٣) واتهمه بأن لخالد عنده وديعة بمقدار ستمائة ألف درهم!

هذه اللقطات سوف تساعدنا على تحديد الفترة التي نظمت فيها الهاشميات والفترة التي انتهى فيها الكميّ منها ولننظر في كتب الأدب بعد هذا. يمكن أن نحدد نهاية الهاشميات بسهولة إذا اعتمدنا على هذا النص: «دخل الكميّ بن زيد الأسدي على أبي جعفر

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ٣٢٠.

(٢) نفس المصدر السابق ٣٢٣.

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ٣٢٦.

محمد بن علي عليهما السلام، فقال: يا كميث أنت القاتل:
فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصاير؟

قال: «نعم قد قلت، ولا والله ما أردت إلا الدنيا، ولقد عرفت
فضلكم.

قال: أما إن قلت ذلك فإن التقيّة لتحل^(١).

فالإمام الباقر كما ذكرت كتب التواريخ قبل قليل توفي عام
(١١٤ هـ أو ١١٧ هـ) فإذا أخذنا بالتاريخ الأخير يكون الكميث قد
أنهى خصومته السياسية مع الأمويين في هذا العام. وانتهى نظم
القصائد الطوال قبل هذا التاريخ.

وعلى هذا تكون الروايات المغايرة التي وردت في الأغاني فيها
خطأ تاريخي واضح، فهناك رواية تقول:

«إن الكميث أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن... فأحفظت
خالد القسري عليه فرّوى جارية حسناء قصائده الهاشميات. وأعدها
ليهدئها إلى هشام، وكتب إليه بأخبار الكميث وهجاء بني أمية وأنفذ
إليه قصيدته التي يقول فيها:

فيا رب هل إلّا بك النصر يرتجى

ويا رب هل إلّا عليك المعول

(١) انظر الأغاني ٣٥/١٧.

وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد ويمدح بني هاشم^(١).

ومن السهل إذن أن يصحح الخطأ هنا ونقول: إن زيدا لم يرث في هذه القصيدة وهي قد ألفت قبل عزل خالد وظهر زيد بعد عزله، فليلاحظ ذلك!...

إذن متى كتب الكميت الهاشميات إذا عرفنا أنها انتهت (عام ١١٧ هـ).

يبدو أن نشاط المعارضة السياسية الذي ظهر في تأسيس الحزب السري العباسي عام (١١١ هـ) وفي طموح عبدالله بن معاوية، وهو من أولاد جعفر بن أبي طالب وتمركز خالد بعد مرور سنوات على تعيينه هي الفترة التي كتبت فيها الهاشميات - ولا بأس أن نفترض حتى يقوم العكس - أن عام (١١١ هـ) وما تلاه حتى (١١٧ هـ) هي الفترة الملائمة لهذا النوع من الأدب الثوري، فقد ظهرت دعوات موجهة بشكل واضح. وهناك طموح يسند مال ضخمة يوزع بشكل سري أو يودع لغرض الثورة.

والذي يبدو أن النقود التي اتهم بها زيد كانت موجودة عند عبدالله بن معاوية الذي ظهر بعد موت زيد وسيطر على غرب الامبراطورية الأموية حتى ظهر أبو مسلم. ويبدو أن الكميت نظم الهاشميات مدفوعاً دفعاً بكل هذه التأثيرات. ولعل مالا مكتوماً وصله لنظمها، وألا ينبغي أن نستبعد شيئاً مثل هذا، وأن أربعاً من السنين

(١) انظر الأغاني ٦/١٧.

لكافية لتأليف قصائد معدودات. فإذا كانت القصائد العلوية موجودة منذ عام (١١١ هـ) فمتى سميت الهاشميات؟

ويقول الدكتور داوود سلوم: «لم أجد كلمة «هاشميات» فيما بين يدي من مصادر قبل ظهور كتاب الحيوان فهو يذكر ذكراً عابراً أحد كتبه: «وعبتي برسائلي الهاشميات»^(١).

ويبدو أن لفظة هاشميات أطلقت متأخرة على المجموعة التي ضمت إليها الأبيات المتفرقة التي نظمت في زيد بن علي وتظهر أول ما تظهر تحمل هذا الاسم في شرح أبي رياش القيسي (ت ٣٣٩ هـ) قال: «هذه الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي بتفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي رحمهما الله»^(٢). ثم تظهر القصائد بهذا الاسم في مروج الذهب للمسعودي والأغانى وفي التمثيل والمحاضرة للشعالبي^(٣).

وبعد تحديد فترة تأليفها وتسميتها بقي أن نعرف ما هو موضوعها الشعري؟ من السهل أن يقول القارىء: إن موضوعها هو مدح وثناء وتمجيد للرسول ولآل بيته، ولكن هل حقاً هو هذا هدفها الحقيقي؟

لا شك أن الذي ينظر فيها يكاد يقطع أنها ألّفت لغاية أخرى وللحث والحض على ثورة وقد غلفت هذا التغليف الديني كي ينجو

(١) انظر كتاب الحيوان الجاحظ ٧/١.

(٢) انظر كتاب شرح هاشميات الكميت تحقيق د. داوود سلوم ونوري حمودي القيسي صفحة ١١ - طبع دار عالم الكتب بيروت ١٩٨٤.

(٣) انظر كتاب شعر الكميت بن زيد الأسدي لداوود سلوم ٥٨/١ وما بعدها.

الشاعر بجلده من العقاب ولم يكد^(١) .

فما هي الأفكار الأساسية؟

أولاً: فكرة تحسبها أهل الأمصار الذين اختلطوا بالموالي وأغرقوا في استغلال حقوقهم كفاتحين، ونشأت الفكرة ابتداء من اعتزاز العربي بنسبه وفتوحاته وانتصاراته، ومعاملته الأقوام المغلوبة أو المأسورة من الأمم معاملة قاسية جافة، وتركها خارج دائرة السلطة المغلقة، تشاركهم في هذا الشعور الأقوام المغضوب عليها كالبيت وأنصارهم من العرب .

وثورة المختار تأكيد صريح لهذا رغم غلافها الديني، والنصوص التالية نداء صريح أيضاً إلى قيام الحاكم العادل الذي يساوي رعيته ولا يظلمها:

سامة لا كمن يرعى النا
س سـواء ورعيـة الأنعام
لا كعبـد المليك أو كـوليد
أو كـلـيمان بـعد أو كـهشام
رأيهم فيهم كـرأي ذوي الثلـ
ة في الثالجات جنح الظلام
جزّ ذي الصوف وانتقاء لـذ
ي المخة ونعقاً ودعدعاً بالبهام
من يمت لا يمت فقيراً وإن يحـ
سـى فلا ذو إلى ذو ذمام

(١) انظر المصدر السابق صفحة ٥٩ .

فهم الأقربون من كل خير
وهم الأبعدون من كل ذام
وهم الأفون بالناس في الرأ
فة والأحلمون في الأحلام

فهذا الشعر ليس تقريراً لواقع الحال فقط، وإنما هو دعوة لما
ينبغي أن يكون، ولما يريده الشاعر أن يكون عليه الأمر دون شك
ويؤكد ذلك تأكيد الكمية بصورة خاصة على السيرة العادلة التي تميز
بها الخليفة الرابع :

راعياً كان مسحجاً ففقدنا
ه وفقد الميسم هلك السوام

ويقرر هذه الحقيقة وهذا التمني في نصوص أخرى مثل :
أومل عدلاً على أن أنا
ل ما بين شرق إلى مغرب
رفعت لهم ناظري خائف
على الحق يقرع مسترهب

وقال أيضاً:
بمرضي السياسة هاشمي
يكسون حياً لأمتهم ربيعها
وليثاً في المشاهد غير نكس
لتقويم البرية مستطعاً

وبنى الكميت جزءاً من هاشمياته على توزيع الثروة في الدولة
الأموية واستخدمها لإثارة الفقراء على الدولة، وتحسس هذه النقطة
في ثورة المختار والحسين، وكافة الانفجارات الثورية في القرن الأول
الهجري، وبقيت الثروة هي السبب في التدهور الاجتماعي والسياسي
الذي أصاب الخلافة العباسية في القرنين الثالث والرابع. وتركز
الثورة على القسمة للمال الغير عادلة في هذه القصيدة اللامية فيقول:

فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم
ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
أهل كتاب نحن فيه وأنتم
على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلقه
فريقان شتى تمنون ونهزل

وقال:

كما رضىت نجلاً وسوء ولاية
لكلبتها في أول الدهر حومل
نباحاً إذا ما الليل أظلم دونها
وضرباً وتجويعاً خبال مخيل
وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا
لا جور من حكامنا المتمثل

وقال:

تحل دماء المسلمين لديهم
ويحرم طلع النخلة المتهدل
وأظماؤنا الأعشار فيم لديهم
ومرتعنا فيهم إلاء وحرمل
وليس لنا في الفيء حظ لديهم
وليس لنا في رحلة الناس أرحل

الخاتمة

لم تكن رواية شعر الكميت من السهولة بمكان، فهو وثيقة عليها كثير من المآخذ السياسية والاجتماعية، ففيها نصوص لا ترتضيها اليمن ولا ترتضيها المضرية، وفيها شعر لا يرتضيه الأمويون ولا يرتضيه الهاشميون، ورغم أن للكميت رواية خاصاً به، إلا أن قسماً كبيراً من شعره أهمل أو ضاع بعضه في حياته.

وبعيد وفاته سرعان ما تفرق وتجزأ، وأسقط منه ما يخشى من روايته لسبب أو لآخر، ولا شك أن قسماً لا بأس به بقي يحمله رواة من بني أسد اعتزازاً به وبشاعره. ويكفي أن نعرف بأن الرواة كانوا حذرين جداً من رواية شعره السياسي.

ويبدو من كتب التواريخ والسيرة أن شعر الكميت تعرض بسبب الهاشميات مرة أخرى للتوزع أو الفقدان، ولوجود الرقابة على باعة الكتب، والتدخل في المنشورات التي يبيعونها، ويكفي لنا مراجعة كتاب تجارب الأمم لمسكويه (١/١٢٨) لنعرف كيفية الملابس

السياسية والعقائدية التي أثرت في ذلك.

وأول من أخرج شعره من رواة بني أسد وأخذ عنهم، أبي كناسة وكان قد أخذ عن جلة الكوفيين ولقي رواة الشعر وفصحاء بني أسد. وقد اتهم الكميت بتكلف الشعر أحياناً والابتسار في التجربة وانعدام الانفعال إلى أن تتوفر الرغبة لذلك.

وصاحب الفكرة في تكلف الكميت وبعده عن الشعر هو حماد الراوية، فقد جاء حماد إلى الكميت فقال: «اكتبني شعرك. قال أنت لحن ولا أكتبك شعري! فقال له: وأنت شاعر؟ إنما شعرك خطب - الموشح (صفحة ٣٠٨) - ويفيد ابن قتيبة من هذه الملاحظة ويقسم شعر الكميت إلى قسمين: شعر يظهر فيه انفعال الشاعر، وشعر ينعدم فيه الانفعال والسيولة العاطفية ويحاول أن يعلل ذلك فيقول: «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإثارة النفس لعاجل الدنيا على أجل الآخرة». الشعر والشعراء صفحة (٢٤).

ويعود فيعمم ابن قتيبة حكماً آخر فيقول: «كان الكميت شديد التكلف في الشعر كثير السرقة» وكان ابن قتيبة ينظر في هذا إلى رأي الأصمعي في الكميت وذو الرمة، وكانا جميعاً يستكرهان الشعر.

وقد امتدح آخرون شعر الكميت لفوائده العلمية والتاريخية واللغوية، منهم: معاذ الهراء. سئل معاذ: من أشعر الناس؟ قال: من الجاهليين أم من الإسلاميين؟ قالوا: بل من الجاهليين، قال: امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص. قالوا: ومن الإسلاميين؟ قال:

الفرزدق والجبرير والأخطل، والراعي، فقبل له: يا أبا محمد ما رأيـناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت! قال: ذاك أشعر الأولين والآخرين.

وهنا يقول الدكتور عبد المتعال الصعيدي: «والحق أن الكميت لم يقصر عن شعراء عصره من جهة ألفاظه وأساليبه ولكنه امتاز عليهم بالمعاني والأغراض الإسلامية والاجتماعية التي أدخلها في شعره، فكان هو الشاعر الإسلامي حقاً أما غيره من الشعراء الذين يقال لهم إسلاميون، فلا يصح أن يطلق عليهم هذا الاسم لأنه لم يكن هناك فرق بينهم وبين الشعراء الأقدمين».

وفي القرن الرابع كان شعر الكميت مجموعاً في ديوان واحد معروف للمؤلفين والظاهر أن ديوانه في القرن الرابع قد خرج من العراق إلى الخارج، وتجد أبياتاً للكميت تستخدم للشاهد والمثل في أقطار البلاد الإسلامية حتى في الأندلس (ابن عبد ربه) وشمال إفريقيا (أبي رشيق) ولا يستبعد أن تكون وصلت نسخ من ديوانه إلى هناك. وحين نتبع ذكر الديوان وأخباره نسمع به في القرن السابع عند ابن المستوفي (ت ٦٣٧ هـ) وهو قد عاش في شمال العراق وتنقل بين إربد والموصل، وقال مرة: «لم أره في ديوانه». وفي نفس القرن يشير الصاغاني (ت ٦٥٠ هـ) إلى شعر الكميت ويقول: «لم أجده في شعره». وهذا القول صلد عنه وهو في بغداد والصاغاني قد عاش فترة من حياته في اليمن.

وآخر إشارة لديوان الكميت في القرن التاسع من العيني (ت ٨٥٥ هـ) فهو يذكر ديوان الكميت بين مراجعه في المقاصد النحوية المنشورة على هامش الخزانة. فما حدث لديوان الكميت؟

وهنا يتساءل الدكتور داوود سلوم: «هل من المعقول أن تفقد النسخ كلها ونحن نعرف من التاريخ أن هناك أكثر من نسخة في بغداد عبر القرون ونسخة في فارس في القرن الرابع ونسخة في الموصل وبغداد في القرن السابع ونسخة في حلب أو مصر في القرن التاسع؟ هل أتلقتها العصابات؟ هل أتلقتها الأحداث، هل ما زالت مطوية في مكان ما من هذا العالم، سؤال تجيب عنه الأيام...»

وعموماً فأنتني أرجو أن أكون قد وفقت في كشف جوانب من شعر الكميت بن زيد الأسدي في هذا العرض والتقييم.

دمشق ١٩٩٣/٦/٢٩

نونية الكميت بن زيد الأسدي

وشرحها لأبي رياش اليمامي

تحقيق الأستاذ الشيخ حمد الجاسر

مقدمة للأستاذ الشيخ حمد الجاسر نشرت في مجلة العرب السنة ١٣ الجزئين التاسع والعاشر، آذار نيسان ١٩٧٩ عن الكميت ونونته... وهي مختصرة حسب الفائدة منها ومن أراد الاستزادة فقد أشرت إلى مكان وجود هذه القصيدة في آخر هذه المقالة: «...». يعتبر الكميت من مكثري الشعراء، ومع ذلك فما وصل إلينا من شعره قليل. وهو قسمان الهاشميات وما جمعه الدكتور داوود سلوم في جامعة بغداد بعنوان شعر الكميت بن زيد الأسدي. وقد طبع سنة (١٩٦٩ ر) بمطبعة النعمان في النجف في أقسام ثلاثة صفحاتها نحو ٦٢٦ يحوي القسم الأول من الشعر ما جمع قديماً، وأضاف الدكتور

داوود في القسم الثاني ما يرى صحة نسبته للشاعر وخصص القسم الثالث لما نسب للكميت ولغيره من الشعراء.

ولا يُدرك جهد الدكتور داوود في الحرص على جمع ذلك الشعر إلا من طالع بإمعان كل صفحات ذلك الكتاب. يُعد الكميت من أقدم مثيري بواعث العصبية وموقدي نار الشقاق بين العدنانيين والقحطانيين، بل يعتبر أول من شَبَّ أوارها على ما ذكر المسعودي في مروج الذهب...

وبصرف النظر عن كون الكميت أجمع بشعره - هاشمياته وقصيدته النونية - نار العصبية، ولكنه بهذه القصيدة أثار في نفوس شعراء الشعبين من كوامن البغض والحقد ما ظل أواره يشتعل إلى عصرنا الحاضر...

وقد عارض الكميت شعراء كثيرون منهم حكيم بن عياش الأعور الكلبي وسراقة البارقي، وقد وردت إشارات إليهما في شرح قصيدة الكميت وهما معاصران له: كما عارضه دعلج بن علي الخزاعي الشاعر المعروف بقصيدته التي مطلعها:

أفريقي من ملامك يا ظعينا

كفأك اللوم مرّ الأربعينا

ومحمد بن أبي عينة المهلبى - من معاصري دعلج - على ما ذكر الأصفهاني في الأغاني وعاصره شاعر يدعى أبا الذلفاء الحسن بن زيد فناصر الكميت بقصيدة سمّاها الدامغة مطلعها:

أما تنفك قبولا حزينا

تحب البيض تعصي العاذلينا

وجاء الهمذاني، أو كما وصف نفسه «لسان اليمن» فعارض
الكميت بقصيدته التي تجاوزت ستمائة بيت، افتتحها بقوله:

ألا يـاـدار لـولـا تنطقينـا
فإنـا سائلون ومخبرونـا

وقال فيها:

ودامغة كمثل الفهر تهوي
على ييض فتتركه طحينـا
ترد الطول للأسدي عرضاً
وتقلب منه أظهره بطونـا

وقد نشرها الأستاذ محمد بن علي الأكرع، [طبع في مصر سنة
١٣٩٧ في ٦١٣ ص] وكثرت (الدوامغ) بعد ذلك...

ويتابع الاستاذ حمد الجاسر فيقول:

«وهناك قصائد أخرى في محاكاة قصيدة الكميت مناقضة لها
أمؤازرة من بحرهما وروبيها، وأخرى تخالفها في البحر أو القافية، لا
نرى الإطالة بذكرها... ولكن مع ما لقصيدة الكميت من أثر، وما
بلغته لدى الشعراء من شهرة لم تصل إلينا كاملة.

... وكل ما يعيننا هنا أننا ظفرنا بأصل للقصيدة الكميتية يضيف
جديداً إلى ما وصل إلينا منها، وعثرنا على ما يقرب من ثلاثمائة بيت
من شعر أحد فحول الشعراء المتقدمين، بشرح العالم اللغوي أبي

رياش اليمامي وكان ذا عناية خاصة بشعر الكميت خاصة، مع عنايته
بشعر غيره. وفي هذا الشرح نصوص لغوية على جانب من الفائدة
للمعنيين بالدراسات اللغوية...

ولم أجد نفسي بمراجعة كتب الأدب لمقابلة أبيات القصيدة أو
الاستزادة من أبيات لم ترد، لأن الدكتور داوود سلوم - الذي عني
أشد عناية بجمع شعر الكميت ونشره لم يترك زيادة لمستزيد حسبما
ذكر من المؤلفات التي رجع إليها - لهذا اكتفيت بالإشارة في
(الهوامش) إلى ما جمع من أبيات القصيدة ورمزت لذلك بحرف (د)
وهو جدير بأن يذكر عمله مقروناً بالشكر والتقدير.

والقصيدة الكميتية تبدأ بالبيت:

ألم تتعجبي من ريب دهر
رأيت ظهوره قلبت بطوننا

وتنتهي بما هذا نصه:

كبيت العنكبوت وجدت بيتاً
يمد على قضاة أجمعينا

بعض النص الموجود من القصيدة:

قال الكميت بن زيد الأسدي:

ألم تتعجبي من ريب دهر
رأيت ظهوره قلبت بطوننا
فإنك قد رأيت وإن تعيشي
تري [ويرى] عجائب ما رأينا

رأيت الخمر تنطق في زمان
 بكلف أهله الإبل الطحينا
 وبذلت الحمير فما فزعنا
 لذاك من النهيق به الحينا
 وعطفست الضباب أكف قوم
 على فتخ الضفادع مرثميننا
 وذلك ضرب أخماس أريدت
 لأسداس عسى أن لا تكوننا
 أرادوا الناس من سلفى نزار
 أمورا يمتنعن ويمتريننا
 أرادوا أن تزيدل خالقات
 أديمهم يقسن وتفتريننا
 فما وجدوهم إلا أديماً
 يرد مواسي المتحفيننا
 عكاظياً أبوه أبوا أباد
 صحيحاً لا عوار ولا دهننا
 وله جمعوا اللتين إلى اللثيا
 فلا حلماً لقوه ولا عطينا
 وكان يقال: أن ابني نزار
 لعلات فأمسوا توأميننا
 تنبه بعسد نومته نزار
 لهم بالملحقات معانديننا

ومنها قوله :

فتلك ثياب إسماعيل فينا
صحاحاً ما دنسنا وما بلينا
وإن لنا بمكة أبطحها
وما يبين الأخشاب والحجوننا
وبيت الله نحن لله ولادة
وخزآن عليه مسلطوننا
وزمزم والحطيم وكل ساق
يرى أهل الخصاص له قطينا

وقال :

وكل خليفة وولي عهد
ومتظفر لأمر المؤمنيننا
وفي أيام هات بهاك يلقى
إذا رزم الندي متحلييننا
نباري الريح ما بردت وثيننا
لأموال الغرائب ضامنونا
لنا قمر السماء وكل نجم
تشير إليه أيدي المهتديننا
وجددت الله إذا سمى نزاراً
وأنزلهم بمكة قاطنيننا
لنا جعل المكارم خالصات
وللناس القفا ولنا الجبيننا

وما ضربت هجان بني نزار
 فالج من فحول الأعجمينا
 وما حملوا الحمير على عتاق
 مطهممة فيلفوا مبلغينا
 وما وجدت بنات بني نزار
 حلائل أسودين وأحمرينا
 أباءهم فلم يشوبوا
 بسمهم إهالة خاقينا

وقال:

وجدت الناس غير ابني نزار
 ولم أر مثلهم شرطاً ودوناً
 وإنهم لا أخوتنا ولكن
 أنامل راحة لا يستويننا
 هم أبناء آدم لهم أجدهم
 إلى نسب سواء مجمعيننا
 أنوام تقول... بني لؤي
 قعيد أيبك أم متناومونا
 عن الرامي الكنانة لم يردها
 ولكن كاد غير مكايديننا
 وما رب الكنانة يتغيها...
 ككلب السوء هراً لموليغينا

كبرت العنكبوت وجدت بيتاً
يمد على قفصاعة أجمعينا^(١)

(١) انظر هذه القصيدة كاملة حسب ما جمعه الأستاذ حمد الجاسر في كتاب
شرح هاشميات الكميت لأبي رياش تحقيق الدكتور داوود سلوم والدكتور
نوري حمودي القيسي طبعة عالم الكتب ١٩٨٤ بيروت. المستدرك رقم ٣
صفحة ٢٥٤.

نماذج من أشعاره وبعض ما جاء من أخباره

دخل الكميت على خالد القسري فأنشده قوله فيه :

لو قيل للجود من حليفك ما

إن كان إلا إليك يتسببُ

أنت أخوه وأنت صورته

والرأس منه وغيرك الذنبُ

أحرزت فضل النضال في مهل

فكل يسوم بكفك القصصُ

لو أن كعباً وحاتماً نُشرا

كانا جميعاً من بعض ما تهب

لا تخلف الوعد إن وعدت ولا

خلفك للراغبين منقلب

وأمر له بمائة ألف درهم!!!

وقال يمدح يوسف بن عمر بعد قتله زيد بن علي فأنشده معروضاً
بخالد بن عبد الله القسري:

خرجت لهم تمشي البراح ولم تكن
كمن حصنه فيه الرتاج المضئب
حلفت برب الناس ما أم خالد
بأملك إذ أصواتنا الهل والهـب
ولا خالد يستطيع الماء قائماً
بعدلك والداعي إلى الموت أقرب

ذكر الخبر عن سبب عزل هشام عاصماً وتوليته خالداً خراسان:
وكان سبب ذلك فيما ذكر علي عن أشياخه: أن عاصم بن
عبد الله كتب إلى هشام بن عبد الملك: «أما بعد يا أمير المؤمنين فإن
الرائد لا يكذب أهله وقد كان من أمر أمير المؤمنين إلي ما يحق به
علي نصيحته وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق
لتكون موادها ومنافعها ومعونتها في الأحداث والنواب من قريب
لتباعد أمير المؤمنين عنها وتساوى غيائه عنها». فلما مضى كتابه خرج
إلى أصحابه يحيى بن حنظل والمجشع بن مزاحم وأصحابهم
فأخبرهم فقال له المجشع:

أبعد ما مضى الكتاب كأنك بأسد قد طلع عليك: فقدم أسد بن
عبد الله بعث به هشام بعد كتاب عاصم بشهر فبعث الكميث بن زيد
الأسدي إلى أهل مرو بهذا الشعر:

ألا ابلغ جماعة أهل مرو
 على ما كان من دنو وبعدي
 رسالة ناصح يهدي سلاما
 ويأمر في الذي ركوا بجدي
 وأبلغ حارثاً عنا اعتذارا
 إليه بأن من قبلي بجهدي
 ولو لا ذاك قد زارتك خيل
 من المصريين بالفرسان ترددي
 فلا تهنوا ولا ترضوا بخف
 ولا يغرركم أسد بعدي
 وكونوا كالغيايا ان خدعتهم
 وإن أقررتهم ضيماً لو غدي
 وإلا فسارفعوا الرايات سودا
 على أهل الضلالة والتعدي
 فكيف وأنتم سبعون ألفا
 رماكم خالد بشييه قرد
 ومن ولي بذمته رزينا
 وشيعته ولم يعرف بعدي
 وقد غنى قضاة ثوب خزي
 بقتل أبي ملامان بن مغدي
 فمهلك يا قضاة فلا تكوني
 توابع لا أصول لها بنجدي

وكننت إذا دعوت بني نزار
 أتاك الدهم من سيط وجعد
 فجذع من قضاة كل أنف
 ولا فازت على يوم بمجد
 قال: ورزين الذي ذكره كان خرج على خالد بن عبد الله بالكوفة
 فأعطاه الأمان ثم لم يوف به.

جاء في معاهد التنصيص: «فقال الكميت في خالد»:
 أراها وإن كانت تحب كأنها
 سحابة صيف عن قليل تقشع

حدث إبراهيم بن عرفة الأزدي عن عبد الله بن إسحق بن سلام
 قال: أتى الكميت باب مجلس يزيد بن المهلب يمتدحه، فصادف على
 بابه أربعين شاعراً فقال للآذن: استأذن لي على الأمير. واستأذن له
 عليه فأذن له. فقال له: كم رأيت بالباب من شاعر؟ قال: أربعين
 شاعراً. فقال فأنت جالب التمر إلى هجر. فقال: إنهم جلبوا دقلاً
 وجلبت زاداً. فقال: هات زادك فأنشده:

هلا سألت منازلاً بالأبرق
 درست وكيف سؤال من لم ينطق
 لعبت بهاريجان ربح عجاجة
 بالسافيات من التراب المعتق
 والهيئ رائحة لها يتاحها
 طقل العشي بلذي حناتم شرق

تَصِلُ اللِّقَاحَ إِلَى التَّجَارِ مَرَّةً
لَخَفُوقِ كَوَكِبِهَا وَإِنْ لَمْ يَخْفُقْ
غَيْرِنَ عَهْدِكَ بِالْأَدْيَارِ وَمَا يَكُنْ
رَهْنُ الْحَوَادِثِ مِنْ جَدِيدٍ يَخْلُقُ
إِلَّا خَوَالِدٌ فِي الْمَحَلَّةِ بَيْتُهَا
كَالطَّلَسَانِ مِنَ الرَّمَادِ الْأَوْرَقِ
وَمَشْجَحَاتِ تَرْكِ الْوَلَدِ رَأْسَهُ
مِثْلَ السَّوَاكِ وَدَمْنِ كَالْمُهْرَقِ
دَارِ التِّي تَرْكُوكَ غَيْرَ مَلُومَةٍ
دَنْفَا فَإِنْ لَمْ تَرَعْ قَلْبِكَ فَاشْفُقْ
قَدْ كُنْتَ قَبْلُ تَشُوقٍ مِنْ هَجَرَانِهَا
فَالْيَوْمِ إِذْ شَحِظَ الْمَزَارُ بِهَا تَقْ
وَالْحَبِّ فِيهِ حَرَارَةٌ وَمَرَارَةٌ
سَائِلُ بِذَلِكَ مَنْ تَطْعَمُ أَوْ زَقِي
مَا ذَاقَ بِؤْسَ مَعِيشَةٍ وَنَعِيمِهَا
فِيمَا مَضَى أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعِشْ

حتى بلغ إلى قوله :

مَنْ قَالَ بَتَ أَخَا الْهَمُومِ وَمَنْ يَبْتَ
غَرَضُ الْهَمُومِ وَنَضَبُهُنَّ يُؤْزِقُ
بَشَرَتْ نَفْسِي إِذْ رَأَيْتُكَ بِالْغَنَى
وَوَثِقْتُ حِينَ سَمِعْتُ قَوْلَكَ لِي ثِقِ

وقال المرتضى: «ويشبه أن يكون الكميّ أخذ من الخساء قوله
في مخلد بن يزيد بن المهلب:

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه
أحد ومثلك غالباً لم يُلْحَقِ
تتجاذبان له فضيلة سئة
وتلوت بعد مصلية لم تُسَبِّقِ
إن تنزعاً وله فضيلة سبقه
فبمثل شأؤ أبيك لم يُتَعَلَّقِ
ولئن لحقت به على ما قد مضى
من بُعد غايته فاحجٍ واخلق»

قال يصف ذنباً لقيه في بعض الأرض:
لقينا بها ثلباً ضريراً كأنه
إلى كل من لاقى من الناس مذنبٌ
مضيعاً إذا أثرى كسوباً إذا عدا
لساعته ما يستفيد ويكسبُ
تضوّر يشكو ما به من خصاصة
وكاد من الإفصاح بالشكو يعربُ
فنشأ له من ذي المزود حصّة
ولللزاد أسار تلقى وتوهبُ
وقلنا له هل ذاك فاستغن بالقري
ومن ذي الأداوي عندنا لك مشربُ
وصُوب له شول من الماء غابر
به كفّ عنه الحيلة المتحوبُ

قال يصف ذئباً لقيه في بعض الأرض :
بنائية المناهل ذات غول
لسرحان الفلاة بها ضييبُ
يراني في الطعام له صديقاً
وشادنة العسابر رعييبُ
إذا اشتكيا إليّ رأيت حقاً
لمحرومين شفهما السفوبُ

قال يصف القطا وهو يطلب الماء :
أو الناطقات الصادقات إذا غدت
باسقية لم يفرهن المطيبُ
جعلن لهن الخمس للعيس روحة
سباسها مفض إليهن مسبُ
فأبن قصار الظم لم يسترثها
بما فيه من ري الصوادي التحبُ

قال في ذكر النساء وزهدن في ذوي الشيب :
لهن وللمشيب ومن علاه
من الأمثال قائية وقوبُ

وقوله :

ولا حليلة جاري لست زاعمها
تصبر إليّ وساء الصدق والكذب

قال في الجمد والبرد والأزمات :
وفي السنة الجماد يكون غيثاً
إذا لم تعطِ درتها الغضوبُ
وروح اللقاح مبهلات
ولم تعطف على الربيع السلوبُ
وكان السوف للفتيان قسوتا
تعيش به وهيئت الرقوب
وصار وقودهم للحى أما
وهان على المخبأة الشحوبُ

وفي الحرّ من القصيدة :
وخرق تعزف الجنان فيه
لأنفدة الكمأة لها وجيبُ
قطعت ظلام ليلته ويوما
يكاد حمى الأكام به يذوبُ
قال الكميّ :

ألا أرى الأيام يُقضى عجيبها
بطول ولا الأحداث تنفى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها
بعض من الأقوام إلا لبيها

ولم أر قول المرء إلا كنبلسه
 به وله محرومها ومعيبها
 وما غبن الأقسام مثل عقسولهم
 ولا مثلها كسبا أفاد كسوبها
 وما غُيب الأقسام عن مثل خطبة
 تغيب عنها يوم قبلت أريبها
 ولا عن صفاء الثيق زلّت بناعل
 ترامي به أطوادها ولهُوبها
 وتغنيد قول المرء شين لرايه
 وزينة أخلاق الرجال وظوبها
 واجهلُ جهل القوم ما في عدوهم
 وأقبحُ أخلاق الرجال عزيزها
 رأيتُ ثياب الحلم وهي مُكنة
 لذئ الحلم يعرى وهو كاس سلبها
 ولم أر باب الشر سَهلاً لأهله
 ولا طُرق المعروف وعشا كثيها
 وأكثر ما تمنى المرء من مطعمانه
 وأكثر أسباب الرجال كذوبها
 ولم أجِد العبدان اقضاء أعين
 ولكنما اقذاؤهما ما ينوبها
 من الضيم أو أن يركب القوم قومهم
 ردافا مع الأعداء ألبا الوبها

رمتني قريش عن قسي عداوة
 وحقد كان لم تدبر أني قريها
 نوقع حولي نارة وتصيني
 بنبل الأذى عفواً جزاها حسيها
 وكان سواغاً إذ عثرت بغصة
 يضيق بها ذرعاً سواها طيها
 فكم أرغ مما كان بيني وبينها
 ولم تك عندي كالذبور جنوبها
 ولم أجهل الغيث الذي نشأت به
 ولم أتضرع أن يجيء غصوبها
 وأصبحت من أبوابهم في خطيطة
 ولا ذنب للأبواب مرت جديها
 ولأبعد الأقصى تلاع مريعة
 أقام بها مثل السنام عسيها
 رمتني بالآفات من كل جانب
 وبالذرئياً مُرّذ فهر وشيها
 بلا ثبت إلا أقاويل كاذب
 يُحرّب أسد الغاب كفتا وثوبها
 لعمر أبي الأعداء بيني وبينها
 لقد صادفوا أذان سمع تجيها
 فلن تجسد الأذان إلا مطيعة
 لها في الرضا أو ساخطات قلوبها
 أفي كل أرض جتتها أنا كائن
 لخوف من بني فهر، كأنني غريها

وإن كنت في جذم العشيّة أقلت
 عليّ وجوه القوم كرها قطوبها
 بني ابنة مرّاً أين مُرّة عنكم
 وعنا التي شعباً تصير شعوبها
 وأين ابنها عنا وعنكم ويعلمها
 خزيمة والأرحام وعشا جؤوبها
 إذا نحن منكم لم نسل حق أخوة
 على أخوة لم يخش غشا جؤوبها
 فأية أرحام يُعأذ بفضلها
 وأية أرحام يؤدي نصيبها
 لنا الرّحم الدنيا وللناس عندكم
 سجال رغبات اللّهي ودؤوبها
 ملأتم حياض الملحمين عليكم
 وآثاركم فينا تفضيب ندوبها
 ستلقون ما أحببتم في عدوكم
 عليكم إذا ما الخيل ثار غضوبها
 فلم أرفيكم سيرة غير هذه
 ولا طُفمّة إلا التي لا أعيبها
 ملأتم فجاج الأرض عدلاً ورافة
 ويعجز عني - غير عجز - رحيها
 قطعتم لساني عن عدو تنالكم
 عقاربُه تلداغها وديبها

فأصبحت قدما مفحما وضربتني
محالف إفحام وعي ضريها
فأرحامكم لا تطلبنكم فإنها
عواتكم لم يهجع بليل طليها
إذا نبتت ساق من الشر بيننا
قصدتكم لها حتى يجر قضيبها
لتركنا قربي لؤي بن غالب
كسامة إذ أودت وأودى عتيها
فأين بلاء الدين عنا وعنكم
لكل أكف حاقنات ضريها
ولكنكم لا تستيئون نعمة
وغيركم من ذي يد يشيها
وإن لكم للفضل فضلا مبرزا
يقصُرُ عنكم بالسُعاة لغوبها
جمعنا نفوساً صاديات إليكم
وأفئدة منا طويلا وجيها
فقائية ما نحن يوماً وأنتم
بنبي عبد شمس أن تفيئوا وقوبها
وهل يعدون بين الحبيب فراقه
نعم، داء نفس أن يبين حييها
ولكن صبراً عن أخ لك ضائر
عزاء إذا ما النفس حنّ طروبها
رأيت عذاب الماء أن حيل دونه
كفاك لما لا بد منه شريها

وإن لم يكن إلا الأسنة مركب
 فلا رأي للمحمول إلا ركوبها
 يشربون للأقصين معسول شيمة
 فأئى لنا بالصاب أنى مشوبها
 كلوا مالديكم من سنام وغارب
 إذا غيّت دودان عنكم غيوبها
 متذكرنا منكم نفوس وأعين
 ذوارف لم تفتن بدمع غروبها
 إذا ودأتنا الأرض إن هي وأدت
 وافرغ من بين الأمور وقوبها
 تركنا مطاف الشعب وهو محلنا
 لكم ومطابخ الواجبات جوبها
 ومشعر جفيع والمغاض عثية
 إذا حال دون الشمس قصرا مغيبها
 ومزسى حراء والأباطح كلها
 وحيث التقت أعلام ثور ولوبها
 ومورد خيلنا عكاظ كأنها
 بواكير طير بات قيا عدوها
 وقبر أبي داود حيث تشققت
 عليه المآلي عصبها وسبيها
 تهتكها اليبض الشغامي م حرة
 يهيج اكتساب الجن وهنا كتيها

بنات نبي الله وابن نسيئة
يكاد يزيل الراسيات نحيها
قواطنُ بيت له هُنَّ حَمَامَة
بَزْمَزَمَ يوم الورد يلقى مهيها
بسفح أبي قابوس يندبن هالكا
يخفُض ذات الولد عنها وقوبها
أبونا الذي سَنَّ المئين لقومه
ديات وعداها سلفاً منيها
وسلمها فاستوثق الناس للتي
يعلل مما سَنَّ فيهم جدوبها
غنائم لم تجمع ثلاثاً وأربعاً
مسائل بالالحناف شتى ضرورها
فلما نفيتهم عن تهامة كلها
بيوتها هي الأدنى إليكم نسيها
فزعتهم لنا في كل شرق ومغرب
بنا ولنا أظفاركم وعلوبها
فاين سواكم أين لا أين مذهب
وهل ليلة قمرء نأج طليها
يعاتبنني في النصح فهُرُّ بن مالك
ولم تدر ما يخفي الضمير عيوبها
ولو مات من نصح لقوم أخوهم
لقد لقيتني بالمنايا شعوبها
ولو كان تخليد لذي النصح نصحه
لملئت دنيا ما أقام عسيها

أطيب نفسي عن لؤي بن غالب
 وهيهات مني ثم هيهات طيها
 أبوها أبي الأذنس وأمي أئها
 فمن أين رابتنس وكيف أريها
 إذا سئنت نفسي عن بني النضر سلوة
 عصتنس فلم يسلن لطوع جنيها
 إلا بابي فهر وأمي مالك
 ولو كثرت عندي وفي ذنوبها
 هم صفوة الله الخيار وفيهم
 تارث نيران الهدى وثقوبها
 عليهم ثياب النضر وابنيه مالك
 وفهر صحاحا لم يذئن قشيهما
 فلدن لهم أمي وأمههم لهم
 إذا البيض أبدت ما توارى أتوبها
 لهم مشية لا يحدث الحرب غيرها
 إذا ما نحور القوم بل خضيهما
 بمشيتهم طالت قصار سيوفهم
 حفاظا إذا ما الحرب شب شبوها
 يزيدهم عجم الكرابية نجدة
 وعزاً إذا العبدان خان صليها
 لهاميم أشراف بهاليل سادة
 إذا السنة الشهباء عم سغوبها

مغاوير أبطالٍ مساعيد في الرغى
إذا الخيل لم تثبت وفراً أربها
قدورهم تغلي أمام فتاتهم
إذا ما الثريا غاب عصراً رقيها
إذا ما المراضغ الخماس تأومت
ولم تند من أنواء كحل جيوبها
وروحات الأشوال والشمس حية
حداوير حذبا كالحقائق نبيها
وأسكتت در الفحل واستر عفت به
حراجيج لم تلقح كشافاً سلوبها
ويادرها دفء الكنيف ولم يمن
على الضيف ذي الصحن المسن حلوبها

وقال الكميت ايضاً:

طربت وهل بك من مطرب
ولم تصاب ولم تلعب
صبابة شوقي تهيج الحليم
لا عار فيها على الأشيب
وما أنت إلا رسوم الديار
ولو كن كالخلل المذهب
ولا ظعن الخبي إذ أدلجت
بواكر كالإجل والربرب
ولست تصب إلى الظاعنين
إذا ما خليك لم يصيب
فدع ذكر من لست من شأنه
ولا هو من شأنك المنصب
وهات الثناء لأهل الثناء
بأصوب قولك فالأصوب
بنبي هاشم فهم الأكرمون
بنبي الباذخ الأفضل الأطيب
وإياهم فاتخذ أوليا
من دون ذي النسب الأقرب
وفي حبههم فأتهم عاذلاً
نهادك وفي حبلهم فأعطب
أرى لهم الفضل والسابقات
ولم أتمن ولم أحسب

مساميح بيض كرام الجدود
 مراجيح في الرهج الأصهب
 إذا ضمّ في السروح يوم الهيا
 ج آخر وأقدم السي أرحب
 مطاعيم حين تروح الشمال
 بشفان قطعها الأشهب
 مواهب للمنفوس المنزاد
 لأمثاله حين لا موهب
 لحارم غر حسان الوجوه
 مطاعيم للطارق الأجنب
 مقاري للضيف تحت الظلام
 موارى للقادح المثقوب
 إذا المرخ لم يور تحت العفار
 وضنّ بقدر فلم تعقب
 وردت مياهم صاديلاً
 بحائمة ورد مستعذب
 فما حلاتني عصي السقا
 ولا قيل يا ابعد ولا يا اغرب
 ولكن بخأجاة الأكرمين
 بحظي في الأكرم الأطيب
 لئن طال شربي لآجنات
 لقد طاب عندهم مشربي
 أجبل وأصدر عن غيرهم
 برري المحلا والمواب

أناسٌ إذا وردت بحرهم
 صوادي الغرائب لم تضرب
 وليس التفحش من شأنهم
 ولا طيرة الغضب المغضب
 ولا الطعن في أعين المقبلين
 ولا في قفا المدبر المذنب
 نجوم الأمور إذا ادلمست
 بظلماء ديجورها الأشهب
 وأهل القديم وأهل الحديث
 إذا نقضت جبهة المحتجب
 وشجوا لنفسي لم أنسه
 بمعترك الطف فالمجنب
 كأن خدودهم الواضحا
 ت بين المجر إلى المسحب
 صفائح ييض جلتها القيرو
 ن مما تخيرون من يشرب
 أو مل عدلاً عسى أن أنا
 ل ما بين شرق إلى مغرب
 رفعت لهم ناظري خائف
 على الحق يقعد مسترهب

الهاشميات

(١)

مَنْ لِقَلْبٍ مَتَّيْمٍ مُسْتَهَامٍ
غَيْرِ مَا صَبَوَةٍ وَلَا أَخْلَامٍ
طَارِقَاتٍ وَلَا أذْكَارٍ غَوَانٍ
وَاضِحَاتِ الْخُدُودِ كَالْآرَامِ
بَلْ هَوَايَ الَّذِي أَجِنُّ وَأُنْسِي
لِبَنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الْأَنَامِ
لِلْقَرِيِّينَ مَنْ نَدَى وَالْبُعَيْدِ
مَنْ مِنَ الْجَوْرِ فِي عُرَى الْأَحْكَامِ
وَالْمُصِيبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأَ النَّاسُ
وَمُرْسِي قِوَاعِدِ الْإِسْلَامِ
وَالْحِمَاةُ الْكُفَاةُ فِي الْحَرْبِ إِنْ
لَفَّ ضِرَاماً وَقَوْدُهَا بَضْرَامِ

وَالْفَيْوُثُ الذِّينَ إِنْ أَمْعَلَ النَّاسَ
 مِنْ فَمَأْوَى حَوَاضِ مِنْ الْإِيْتَامِ
 وَالْوَلَاةِ الْكُفَاةِ لِلْأَمْرِ إِنْ طَرَّ
 قَ يَنْتَشَأَ بِمَجْهَرٍ أَوْ تَمَامِ
 وَالْأَسَاةِ الشُّفَاةِ لِلدَّاءِ ذِي السَّرِيَّةِ
 سَةِ وَالْمَدْرِكِينَ بِالْأَوْغَامِ
 وَالرَّوَايَا النَّاسِي بِهَا يَحْمَلُ النَّاسَ
 مِنْ وَسْوَاقِ الْمَطْبَقَاتِ الْعِظَامِ
 وَالْبَحُورِ النَّاسِي بِهَا تَكْشِفُ الْجِرَّ
 ةَ وَالسَّدَاءَ مِنْ غَلِيلِ الْأَوَامِ
 لِكَثِيرِينَ طَيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ
 مِنْ وَيَرِيْنَ صَادِقِينَ كَرَامِ
 وَأُضْحِي أَوْجَهَ كَرِيمِي جُودِ
 وَاسِطِي نَسَبَةٍ لَهُمَا فَهَامِ
 لِلذُّرَى فَالذُّرَى مِنَ الْحَسَبِ النَّاسِ
 قَبِ بَيْنَ الْقَمَقَامِ فَالْقَمَقَامِ
 رَاجِحِي الْوَزْنَ كَامِلِي الْعَدْلِ فِي
 السَّيْرَةِ طَيِّبِينَ بِالْأَمْوَرِ الْجَشَامِ
 فَضَلُّوا النَّاسَ فِي الْحَدِيثِ حَدِيثاً
 وَقَدِيماً فِي أَوَّلِ الْقَدَامِ
 مُسْتَفِيدِينَ مِنْ مُتَلْفِينَ مَوَاهِدِ
 سَبَّ مَطَاعِيْمَ غَيْرِ مَا أَبْرَامِ

مستعْفِيْنَ مُفْضِلِيْنَ مَسَامِيْهِ
سَحَ مَرَا جِيْعَ فِى الْخَمِيْسِ الْلُّهُامِ
وَمَدَارِيْكَ لِلدُّحُوْلِ مَتَارِيْهِ
لَكَ وَإِنْ أُخْفِظُوا لَعَنُورِ الْكَلَامِ
لَا حُبَّاهُمْ تُحْلُلُ لِلْمَنْطِقِ الشَّدَّ
سَبَّ وَلَا لِلطَّلَامِ يَوْمَ اللَّطَامِ
أَبْطَحِيْنَ أَرْيَحِيْنَ كَالْأَنْدِ
جُحْمِ ذَاتِ السَّرْجُومِ وَالْأَعْلَامِ
غَالِبِيْنَ هَاشَمِيْنَ فِي الْعَدِّ
سَمَّ رَبَّوْا مِنْ عَطِيَّةِ الْعِلَامِ
وَمَصْفِيْنَ فِي الْمَنَاسِبِ مُحَضِّ
عَنْ خِضْمِيْنَ كَالْقُرُومِ السَّوَامِيِ
وَإِذَا الْحَرْبُ أَوْ مَضَتْ بَسْنَا الْبَرَّ
فِي وَسَارَ الْهُمَامُ نَجَّوْ الْهُمَامِ
وَرَأَيْتُ الشَّرِيْعَ يَحْنُ نَبْذِ
سَحَ بِمَكْسُورَةِ الظُّهَارِ الْلُؤَامِ
فَهُمُ الْأَسَدُ فِي الْوَعْيِ لَا اللَّوَاتِيِ
بَيْنَ خِيَسِ الْعَرِيْنِ وَالْأَجْسَامِ
أَسَدُ حَرْبٍ غِيُوْتُ جَدَبٍ بِهَالِيْهِ
سَلُّ مَقَاوِيْلُ غَيْرُ مَا أَفْدَامِ
لَا مَهَازِيْرَ فِي النَّدِيِ مَكَاثِيْهِ
سَرَّ وَلَا مُضْمَتِيْنَ بِالْإِفْحَامِ
سَادَةِ ذَادَةٍ عَنِ الْخُرْدِ الْبِيِ
ضِ إِذَا الْيَوْمُ كَانَ كَالْأَيَّامِ

ومغاييرَ عندَهُنَّ مغاويرَ
سَمَاعِيرَ لَيْلَةَ الْإِلْجَامِ
لا معازيلَ فِي الْحُرُوبِ تَنَائِيهَ
سَلَّ وَلَا رَائِمِينَ بَوَّاهْتِضَامِ
وَهُمُ الْآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمْرِ
سَرِّبَتْقُواهُمْ عُرَى لَا انْقِصَامِ
وَالْمَصِييُونَ وَالْمَجِييُونَ لِلدَّغِ
سَوَّةَ وَالْمَحْرُزُونَ خَفْضَ التَّارَامِي
وَمُجَلِّسُونَ مُخْرَمُونَ مُقَرَّرُونَ
نَاحِلَ قَرَارَةٍ وَحَرَامِ
سَاسَةً لَا كَمَنْ يَرَى رِعِيَةَ النَّاسِ
سِيسَاءَ وَرِعِيَّةَ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبِيدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيْدِ
أَوْ سَلِيمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ
رَأَيْتَهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَاثَةِ
فِي الثَّائِجَاتِ جُنْحَ الظَّلَامِ
جُزْءِ ذِي الصُّوفِ وَانْتِقَاءِ لَذِي
الْمُخَّةِ وَأَنْعَقِ وَدَغْدَعَا بِالْبِهَامِ
مَنْ يُمُتْ لَا يُمُتْ فَقِيْدًا وَمَنْ يَحْدِ
يَسَى فَلَا ذُوَ إِلَّا وَلَا ذُو ذِمَامِ
فَهُمُ الْأَقْرَبُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ
وَهُمُ الْأَبْعَدُونَ مِنْ كُلِّ ذَامِ

وهم الأزافون بالناس في الرأ
 فة والأحلمون في الأحلام
 بسطوا أيدي النوال وكفوا
 أيدي البغي عنهم والعمرام
 أخذوا القصد واستقاموا عليه
 حين مالث زوامل الأثام
 عيزت الفعّال والحسب العوّ
 د إليهم محطوطه الأعكام
 أنشرو الصّادق الحديث أبي القا
 سم فرع القداميس القدام
 خير حبي وميت من بني آ
 دم طرأ مأمومهم والإمام
 كأن ميتاً جنازة خير ميت
 غيثنه حفائير الأقسام
 وجنيماً ومرضعاً ساكن المه
 د وبعد الرضاع عند الفطام
 خير مُشترَضِع وخير فطيم
 وجنين أقر في الأرحام
 وغلاماً وناشئاً ثم كهلاً
 خير كهلاً وناشئاً وغلام
 أنقذ الله شلونا من شفا الك
 سار به نعمة من المنعم

لو فدى الحي ميتا قلت نفسي
 وبنيّ الفدى لتلك العظام
 طيب الأصل طيب العود في البند
 ينة والفرع يشربني تهامي
 أبطحني بمكة استقرب الله
 من ضياء العمى به والظلام
 والى يشرب التحول عنها
 لمقام عن غير دار مقام
 مجرة حوّلت من الأوس والخز
 رج أهل الفيصل والآطام
 غير دنيا مخالفاً واسم صدق
 باقياً مجدّه بقاء السلام
 ذو الجناحين وابن هالة منهم
 أسد الله والكمي المخامي
 لا ابن عم يرى كهذا ولا عد
 ثم كهذا سيد الأعمام
 والوصي الذي أمال التجو
 بي به عرش أمة لانهدام
 كان أهل العفاف والمجد والخد
 سر ونقض الأمور والإبرام
 والوصي الولي والفارس المند
 لم تحت العجاج غير الكهام
 كم له ثم كم له من قتيل
 وصريع تحت السبابك دامي

وخميس يلقى به بخميس
وفتاهام حواء بعد فتاهام
وعميد متزوج حُل عنه
عقد الثاج بالصنيع الحسام
قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه
حكماً لا كغابر الحكماء
راعيان كان منجحاً ففقدنا
ه وفقد المقيم هلك الثوام
نالنا فقده ونال سوانا
باجتداع من الأنوف اصطلام
وأشئت بنا مصادر شتى
بعد نهج السيل ذي الآرام
جرّد السيف تارتين من الده
بر على حين درّة من صرام
في مريدين مخطئين هدى الله
به ومستقسمين بالأزلام
وصي الوصي ذي الخطبة الفص
بل ومزدي الخصوم يوم الخصام
وقتل بالطّف غودر منه
بين غوغاء أمية وطغام
تركب الطير كالمجاسد منه
مع هاب من التراب هيام
ونطيل المرزئات المقالي
ست عليه القعود بعد القيام

يتعزّون حرّ وجهه عليه
 عقبته السرو ظاهراً والسوسام
 قتله الأذعفاء إذ قتلوه
 أكرّم الشاريين صوب الغمام
 وسمي النبي بالشعيب ذي الخيد
 سيف طريد المجل بالأحرام
 وأبو الفضل إن أذكرهم الحلد
 هو بفني الشفاء للأسقام
 فيهم كنت للبعيد ابن عم
 واتهمت القريب أي اتهام
 صدق الناس في حين بضرب
 شاب منه مفارق القمقام
 وتناولت من تناول بالغيث
 جة أعراضهم وقلّ اكتام
 ورأيت الشريف في أعين القو
 م وضيعاً وقلّ منه احتشام
 مُعلنًا للمعاليين مُسراً
 للمسريين غير دحض المقام
 مبدياً صفحتي على المرقب المعد
 لم بالله قوّتي واعتصامي
 ما أبالي إذا حفظت أباً القا
 سم فيهم ملامّة اللوام

مَا أَبَالِي وَلَنْ أَبَالِي فِيهِمْ
 أَبْدَأُ رَغَمَ سَاخِطِينَ رِغَامِ
 فَهُسْمُ شَيْعَتِي وَقَسَمِي مِنَ الْأَمَّةِ
 سَةِ حَسْبِي مِنْ سَائِرِ الْأَقْسَامِ
 إِنْ أُمُتَ لَا أُمُتَ وَنَفْسِي نَفْسًا
 نِ مِنَ الشُّكِّ فِي عَمِي أَوْ تَعَامِي
 عَادِلًا غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ طَ
 سْرًا بِهِمْ لَا هَمَامَ بِي لَا هَمَامِ
 لَمْ أَبِيعْ دِينِي الْمَسَاوِمَ بِالْوَكْ
 سِ وَلَا مُغْلِيَاءَ مِنَ الشُّسُومِ
 أَخْلَصَ اللَّهُ لِي هَوَايَ فَمَا أَغْرَ
 قُ نَزْعَاءَ وَلَا تَطْيِشُ سَهَامِي
 وَلِهَيْتُ نَفْسِي الطَّرُوبُ إِلَيْهِمْ
 وَلِهَيَّ حَالَ دُونَ طَعْمِ الطَّعَامِ
 لَيْتَ شِعْرِي هَلْ نَمُّ هَلْ آتَيْنَهُمْ
 أَمْ يَحْوُلُونَ دُونَ ذَاكَ جِمَامِي
 إِنْ تَشَيْعَ بِي الْمَذْكُورَةُ الْوَجْدِ
 خَبَاءُ تَنْفُسِي لُغَامُهَا بَلْغَامِ
 عَتَرِيَسِ شِمْلَةً ذَاتُ لَوْنِ
 هُزْجَلٌ مِيلَعٌ كَتُومُ الْبَغَامِ
 تَصِلُ السُّهْبُ بِالسُّهُوبِ إِلَيْهِمْ
 وَضَلَّ خَرْقَاءَ رُمَّةَ فِي رِمَامِ
 رَدُّهُنَّ الْكِلَالُ حُسْبَاءَ حَدَائِدِ
 رَوَحُ الْإِكَامِ بَعْدَ الْإِكَامِ

فِي حَرَّاجِيحَ كَالْحِنِّيِّ مَجَاهِدٍ
 فَضْ يَخْلُدَنَّ الْوَجِيْفَ وَخَدَّ النَّعَامِ
 يَكْتَنِفَنَّ الْجَهِيْضُ ذَا الرُّمُقِ الْمَعْدِ
 جَلِيَّ بَعْدَ الْحَنِيْنِ بِالْإِرْزَامِ
 مُنْكَرَاتٍ بِأَنْفُسٍ عَارِفَاتٍ
 بِعُيُُونٍ هَوَامِلِ التَّسْجَامِ
 مَا أَبَالِي إِذَا أَنْخَنَ إِلَيْهِمْ
 نَقَبَ الْخُفِّ وَاعْتَرَقَ السَّنَامِ
 يَقْضِي زَوْزٌ هُنَاكَ حَقُّ مَزُورٍ
 مَنْ وَيَخْبُ السَّلَامُ أَهْلُ السَّلَامِ

(٢)

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب
ولا لعباً مني أذو الشيب يلعب
ولم يلهني دار ولا رسم منزل
ولم يتطربني بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشيّة
أمر سليم القرن أم مرّ أعضب
ولكن إلى أهل الفضائل والنهي
وخير بني حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نابني أتقرّب
بني هاشم رهط النبي فإني
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
حفظت لهم مني جناحي مودة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وكنت لهم من هؤلاء ومؤلاً
مجنأً على أنبي أذم وأصب
وأرمي وأرمي بالعداوة أهلها
وأنبي لأذى فيهم وأؤنب
فما ساءني قول امرئ ذي عداوة
بعوراء فيهم يجتديني فيجذب
فقل للذي في ظل عيباء جونة
يرى الجور عدلاً أين لا أين تذهب
بأي كتاب أم بأية سنة
تري جهم عاراً عليّ وتحسب
السلم ما نأني به من عداوة
ويغض لهم لا جبر بل هو أشجب
ستفسر منها سن خزيان نادم
إذا اليوم ضم الناكثين العصب
فما لي إلا آل أحمد شيعة
وما لي إلا مشعب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسي شيعة
ومن بعدهم ولا من أجل وأرجب
أريب رجالاً منهم وتريني
خلائق مما أحدثوا هن أريب
إليك ذوي آل النبي تطلعت
نوازع من قلبي ظماء وألب

ومنها يقول:

هم شهدوا بدرأ وخيبر بعدها
ويوم حنين والدماء تصيب
وهم رثموها غير ظأر وأشبكوا
عليها بأطراف القنا وتحذبوا
فلان هي لم تصلح لحي سواهم
فلان ذوي القربى أحق وأقرب
ولا فقولوا غيرها تتعرفوا
نواصيها تردي بنا وهي شرب

ومنها قوله:

ألم ترني من حب آل محمد
أروح وأغدو خائفاً أتقرب
كأنني جان محدث وكأنما
بهم يتقى من خشية العُرب
على أي جرم أم بأية سيرة
أعنف في تقريظهم وأؤنب
أناس بهم عزت قريش فأصبحوا
وفيهم خباء المكرمات المطنب

وجاء في روضات الجنات: «دخل الكميث على أبي جعفر الباقر
وهو يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
لم يبق إلا شامت أو حاسد
وبقي على ظهر البسيطة واحد
فهو المراد وأنت ذاك الواحد»

وقال في أمالي المرتضى:
«أشعر أبيات قلت في الحسرة والدعاء... أولها قول الكميت بن
زيد:

إن يحسدون فلاني لا ألومهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام بي وبهم مالي ولهم
ومات أكثرنا غيضاً بما يجد
أنا الذي يجدوني في حلوقهم
لا أرتقي صدراً منها ولا أرد
لا ينقص الله حادي فلانهم
أمرٌ عندي من اللاني له الودد»
وقال الكميت أيضاً:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا
أرضى بشتى أبي بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً
بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به
يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

إن الرسول رسول الله قال لنا
إن الولي علي غير ما هجرا
في موقف أوقف الله النبي به
لم يعطه قبله من خلقه بشرا
هو الإمام إمام الحق نعرفه
لا كالذين استزلنا بما ائتمرا
من كان برغمه رغماً فدام له
حتى يرى أنفه بالترب منعفرا

فهرس المصادر والمراجع

الأحكام السلطانية	الماوردي	
أخبار شعراء الشيعة	المرزباني	
أسد الغابة في معرفة الصحابة	ابن الأثير الجزري	دار إحياء التراث العربي
الإصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلاني	دار الكتب العلمية
الأعلام	الزركلي	دار العلم للملايين
أعلام النساء		
الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	دار الكتب العلمية
الأمالي	اليزيدي	عالم الكتب
أمالي	القالبي	دار الكتب العلمية
أمالي	الزجاجي	
امراء البيان	محمد كرد علي	دمشق
إنباه الرواة	القفطي	مؤسسة الكتب الثقافية
الأنساب	السمعاني	دار الجنان
البداية والنهاية	ابن كثير	دار الكتب العلمية
البصائر والذخائر	أبو حيان التوحيدي	لجنة التأليف

البيان والتبيين	الجاحظ	دار الكتب العلمية
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان	
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	دار الكتب العلمية
تاريخ الطبري (الأمم والملوك)	الطبري	مؤسسة الأعلمي
تاريخ يعقوبي	اليعقوبي	
تاريخ الشعر السياسي	أحمد الشايب	
التبصير في الدين	الإسفراييني	عالم الكتب
تهذيب تاريخ دمشق	ابن عساكر	دار الفكر
جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشي	دار الكتب العلمية
جمهرة أنساب العرب	ابن حزم الاندلسي	دار الكتب العلمية
جمهرة خطب العرب	أحمد زكي صفوت	المكتبة العلمية
الحضارة العربية الإسلامية	علي خربوطلي	
حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهاني	دار الكتب العلمية
الحيوان	الجاحظ	
خزانة الأدب	البغدادي	
خلاصة الذهب المسبوك	سنيط ننتو	
رسائل الجاحظ	الجاحظ	
شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي	دار الآفاق الجديدة
شرح شواهد المغني	السيوطي	
شرح مقامات الحريري	الشريشي	القاهرة
شرح الهاشميات	ابن رياش القيسي	عالم الكتب
الشعر والشعراء	ابن قتيبة	عالم الكتب
شعر الكميت بن زيد الأسدي	داوود سلوم	(مكتبة الأندلس بغداد ١٩٦٩)
صفة الصفوة	ابن الجوزي	

طبقات الشعراء	ابن سلام	
العقد الفريد	ابن عبد ربه	دار الكتب العلمية
عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب العلمية
فتوح البلدان	البلاذري	دار الكتب العلمية
فحولة الشعراء		
الفرق بين الفرق	ابن طاهر البغدادي	
الفهرست	ابن النديم	
قوات الوفيات	ابن شاکر الکتبي	دار الثقافة بيروت
القاموس المحيط	الفيروز آبادي	دار الكتب العلمية
الكامل في التاريخ	الذهبي	دار الكتب العلمية
الكميت بن زيد	عبد المتعال الصعيدي	دار الفكر القاهرة
لسان العرب	ابن منظور	
لطائف المعارف	أبو منصور الثعالبي	
مجالس العلماء	الميداني	دار الكتب العلمية
مجمع الأمثال		
مروج الذهب	المسعودي	دار الكتب العلمية
معجم الأدباء	الحموي	دار الكتب العلمية
معجم البلدان	الحموي	دار صادر
معجم شعراء الشيعة	المرزباني	
معجم ما استعجم	البكري	عالم الكتب
معجم المطبوعات العربية	يوسف سركيس	مصر
مقاييس اللغة	ابن فارس	
الملل والنحل	لشهرستاني وبالهامش (أبي حزم)	دار الفكر
المنتظم	ابن الجوزي	دار الكتب العلمية

مواقف في الأدب الأموي	عمر فاروق الطباع	دار القلم
المؤتلف والمختلف	أبو محمد الأزدي المصري	
النثر الفني	زكي مبارك	مصر
نكت الهميان	صلاح الدين الصفدي	
نهاية الأرب	القلقشندي	دار الكتب العلمية
الوافي بالوفيات	صلاح الدين الصفدي	
الوزراء والكتاب	الجهشياري	
وفيات الأعيان	ابن خلكان	
يتيمة الدهر	الثعالبي	دار الكتب العلمية

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

٥	المقدمة
٩	الحياة السياسية
١٢	الحزب الشيعي
١٦	الحزب الأموي
١٩	حزب الخوارج
٢٣	الحزب الزبيري
٢٧	حزب الأنصار
٣٠	الحياة الاجتماعية
٤٠	الحياة العقلية
٤٣	الحياة الأدبية

الفصل الثاني

٤٩	مدخل نحو الشعر الأموي وخصائصه
----	-------------------------------------

٥٤	- أغراض الشعر الأموي
٥٧	- الشعر السياسي ومجمل خصائصه
٥٨	- دور الأدب في السياسة
٥٨	- ماهية الشعر السياسي
٦١	- نشأة الشعر السياسي عند العرب
٧٣	- الشعر السياسي في العصر الأموي وأغراضه
٧٨	- المديح السياسي
٨٠	- المديح التكتيبي
٨١	- الهجاء

الفصل الثالث

٩٠	- نسبه وخبره
٩٣	- حياته ونشأته
١٠٢	- خصائصه النفسية
١٠٥	- علاقة الكميت بالدولة الأموية
١٠٩	- الكميت وخالد بن عبد الله
١١٢	- هربه إلى الشام
١٢٧	- وجوه اضطراب الروايات
١٢٨	- موته ووصيته

الفصل الرابع

١٣١	- أغراضه الشعرية
-----	------------------------